

سمات الخطاب الأخلاقي عند السيد رضي
الدين ابن طاووس الحليّ (ت ٦٦٤هـ)
(مقاربة تداوليّة)

**The Characteristics of the Moralist Speech of
Sayyid Redhei Al-Deen bin Tawoos Al-Hilli
(died 664 H) (A Pragmatic Approach)**

أ.د. رحيم كريم عليّ الشريفي
جامعة بابل / كلية الدراسات القرآنيّة
أ.م.د. حسين عليّ حسين الفتليّ
وزارة التربية / الكلية التربويّة / بابل

**Prof. Dr. Raheem Kareem Al-Shariefi
University of Babylon, College of Quranic Studies
Asst. Prof. Dr. Hussein Ali Al-Fatlee
Ministry of Education, The Educational College/
Babylon**

ملخص البحث

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

لا جرم أن علم الأخلاق من العلوم المهمة التي أولاها القدامى عنايتهم؛ لأنها تمثل العنوان الرئيس لإنسانية الإنسان، وعقلانيته من جهة؛ ولأنها تمتح من البحر الزخار، والمورد العذب للكتب السماوية الإلهية السامية، ولا سيما كتاب الله الأكبر (القرآن الكريم).

وعند سبر أغوار المدونات الحليّة المباركة، من أجل الوقوف على الخطابات الأخلاقية يتجلى لنا الخطاب الأخلاقي السامي لعلم من أعلام هذه المدرسة، وهو السيّد رضي الدين عليّ ابن طاووس الحليّ (ت ٦٦٤هـ)، ليكون قبلتنا في الكشف عن أهمّ سمات خطابه الأخلاقيّ الذي ارتشف من معين كتاب الله (القرآن الكريم) والسنة النبوية المطهرة، وأقوال أئمة أهل البيت عليهم السلام.

ويقينا أن السيّد ابن طاووس كان مرشداً وموجّهاً وواعظاً، وهذا ما سيتكفل البحث ببيانه في ضوء رصد أهمّ السمات المنهجية والأسلوبية التي انطوى عليها خطابه الأخلاقيّ الذي ينتظم ضمن المنهج الأخلاقيّ الأثريّ الوعظيّ التهذيبيّ، هذا الاتجاه الذي نخال أنه يلاطف المجالات التداولية ويغازلها؛ من أجل الوصول إلى أعلى درجات تسييج معطيات الواقع المعيش من جهة، وتفتيح معالم المجال الاجتماعيّ من جهة أخرى؛ لأنه يرى أن تغيير الوضع في عصره لا يكون إلاّ بتهذيب المفاهيم

والتصورات المتداولة؛ من أجل مقاربتها وملاءمتها مع المفاهيم والتصورات الإسلاميّة العظيمة التي تنضبط معها انضباطاً واضحاً، راجياً ثبات النفع الروحيّ فيها، وإطراح كلّ ما خالف الوحي على مقتضاه القيميّ الأخلاقيّ.

Abstract

No doubt that Ethics is a highly important science which has been the concern of many scholars since it reveals the humanity and rationality of people, in addition to being related to the supreme book of Allah, the Holy Quran. In this regard, it is found that the speeches of Sayyed Redhei Al-Deen bin Tawoos Al-Hilli are the best to represent this science.

This study has found that that bin Tawoos tried to improve the society through edifying the ongoing conceptions and vision in order to suit the Islamic great teachings as revealed by Prophet Mohammed (PBUH & H).

التمهيد

ثمّة اتجاهات مختلفة في علم الأخلاق لدى المسلمين، وطبيعي أن يؤدي هذا الاختلاف في الاتجاهات إلى ظهور أنظمة أخلاقية عدّة، وفي مقارنة أولية يمكن تصنيف هذه الاتجاهات إلى أربعة أنظمة، الأول: ذو طابع فلسفي (عقلي)، والثاني: ذو طابع عرفاني (سلوكي)، الثالث: أخلاقي أثري، والرابع: أخلاقي توفيقى^(١).

ويبدو في ضوء الخطاب الأخلاقي الطاووسي أنه ينطوي في ضمن المنهج الأخلاقي الأثري، وهو ما يمثله ابن طاووس خير تمثيل، وخطابه يرتبط بدائرة الموضوعات والعنوانات الأخلاقية التي يعنى بها هذا الاتجاه، نلاحظ أنه في ما يتعلق بالأسرة والاجتماع تغطّي هذه المدرسة مواضيع وعناوين أكثر قياساً بالمدرسة العرفانية، كما أنّ دائرة اهتمامها (أي مصادر الأخلاق الأثرية) في مجال أخلاق العبودية والأخلاق الاجتماعية، تتسع لتشمل مواضيع وعناوين أكثر، قياساً بمصادر المدرسة الفلسفية، إلا أنّها قياساً بمصادر المدرسة التوفيقية، فالنسبة الموجودة هي نسبة العموم والخصوص من وجه؛ وذلك لأنّ بعض العناوين المتعلقة بالأخلاق الفردية أو بالأخلاق الاجتماعية أو بأخلاق الأسرة، لم تردّ في الكتب الروائية، وفي المقابل فإنّ جملة من العناوين التي كانت محطّ اهتمام الروايات، لم يرد لها ذكر في مصادر الأخلاق التوفيقية.

وفي هذا البحث سنحاول بيان أهمّ السمات التي تلبّست بالخطاب الأخلاقي الطاووسي، في ضوء الوقوف على تراثه الزاخر، ونحسب أنّ هذه السمات أمارات وعلامات واضحات على سموّ هذا الخطاب، وعُلوّه، فضلاً عن ذلك انتظامه وإحكامه من جهة أخرى.

المبحث الأول

الدعاء والمناجاة

الدعاء والمناجاة من أهم آليات ابن طاووس في نشر المعارف الإسلامية، زد على ذلك إشاعة نظم التربية، ومعالم الإرشاد الأسري، والمجتمعي، فقد أنضح الخطاب الأخلاقي الأسري والمجتمعي في ضوء استشراف الأدعية والمناجاة، ولا بُدَّ من القول: إنَّ ابن طاووس الحليّ قد استند في اختياراته ومقبوساته للدعاء والمناجاة من جهة أخرى إلى عنصرين مهمَّين هما:

العنصر المعرفي للتوسُّل: لا شكَّ في أنَّ لكلِّ مدرسةٍ أو مذهبٍ تربويٍّ، أنماطاً مثاليَّة تشكِّل نماذج وعيَّات ملموسة يُقتدى بها، تظهر بمظاهر حياتيَّة مختلفة من الكلام والسلوك الفردي والاجتماعي لشخصيَّات تشترك معنا في الخصائص الإنسانيَّة العامَّة، وبإمكانها في ضوء عملية التأسِّي أن تضمن لنا إمكانيَّة ترشُّح القيم والسلوكيَّات الحميدة، وتجنُّدُها في النفس بدرجة عالية.

وفي مدرسة أهل البيت عليهم السلام، يتسنى للشخص المتوسِّل في ضوء المضامين التي تتوافر عليها أدعية التوسُّل والزيارات، نظير الزيارة الجامعة الكبيرة التعرُّف على الأبعاد المختلفة لشخصيَّة الإنسان الكامل الذي اقتدى به أسوةً وإماماً، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنَّ شهادته للإمام بأعمال الخير والسجايا الكريمة، بما تضمَّنه الدعاء من دلالات في ضوء تكرار فضائل رموز مدرسة أهل البيت عليهم السلام، يطبع في ذهنه وعلى صفحة قلبه صورة أبهى وأثر أكبر للإنسان الكامل المهذب.

العنصر العاطفي للتوسل: لا ريب في أن عنصر الحب والعشق من أكثر العناصر التي رفدت مسيرة الإنسانية على مرّ تاريخها الطويل بالحركة والفاعلية، وما فتىء يشكّل الباعث الأكبر الذي يمدُّ الإنسان بزخم، وحيوية، و طاقة أكبر، ففي كثير من الأحيان، وعلى الرغم من تحديّد الإنسان لهدفه، نراه يفتقر إلى الطاقة الروحية والعزيمة اللازمة للمسير باتجاه الهدف، فإذا اقترنت المعرفة الصحيحة للأنموذج القدوة بالمحبّة العميقة الصافية، فحينئذٍ يضحى احتمال التواصل بين الشخص والقدوة، أو قلّ التأسّي، كبيراً جدّاً، والثابت أن مجالس التوسل لها بُعدان:

الأوّل: إنّها محفّل علمي، يتمّ في ضوئه تعرّف الإنسان الأنموذج والأسوة السلوكية الصادرة عنه.

الثاني: إنّها مناسبة احتفالية، يتمّ في ضوئها تزويد المحبّين بشحنات عاطفية، وأنّها محلّ إبراز ما يجيش في الصدور من الحبّ والوَلَه والفقْر بأحاسيس مخلصّة، من هنا يشعر الشخص المتوسّل، بعد كلّ مرّة يبرز فيها تمسّكه بأولياء الله ﷺ بوجود طاقة عظيمة تحمله على الإصرار على البقاء في خطّ الصلاح والطهارة. وعليه فإنّ التوسل، كما الدعاء، طريق للسموّ الروحيّ وتهذيب النفس^(٢).

ولا مناصّ أن نجزم بأنّ الدعاء والمناجاة يضطلعان بأثر رئيس في نشر الثقافة والأخلاق الإسلامية؛ إذ يُعدُّ من الأساليب المؤثّرة في هذا المضمار، وأنّه يشكّل مناخاً تربوياً مناسباً من شأنه تهذيب الأُمَّة الإسلامية بأطيافها كافّة. والدعاء يعني الطلب بمعناه العام، هو يشمل الطلب التكوينيّ، والسؤال الفطريّ أيضاً، ومثلما أنّ الدعاء مقدّمة فهو بنفسه خاتمة أيضاً.

ومن جانب آخر يقرّر القرآن الكريم حقيقة أنّ الدعاء طريق ارتباط العباد بالله ﷻ،

قال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْجَبُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٧٧]، فالدعاء سبيل للنجاة، زيادةً على أنه سبيل للوصول إلى المراتب العليا من الكمال، كما ورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: (إِنَّ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةَ لَا تُنَالُ إِلَّا بِمَسْأَلَةٍ) (٣)، وأن الاستكبار وترك الدعاء؛ يؤدِّيان إلى أن يفقد الإنسان استعدادَه وقابليته لتقبُّل الرحمة الإلهية ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [سورة غافر: الآية ٦٠]، وإلى جانب الأدلة النقلية التي أشرنا إليها، فإن الدليل العقلي هو الآخر يقضي بلزوم الدعاء والارتباط بالحقِّ تعالى، ذلك أن لا حقيقة ولا حيثية للإنسان سوى العبودية لله تعالى والارتباط به (٤).

ومن أهم النتائج التي تترشَّح من أدعية ابن طاووس، ومناجاته هي:

١. ملء الخلاء الفطريِّ والفقر الذاتي الذي يحسُّه الإنسان في عمق وجوده، بإزاء وجود آخر يكون له سنداً ودعامة، يمدُّه بالطمأنينة، ويغمره بالخير المطلق.

٢. زرع حالة الغنى والاستطاعة لدى الانسان، في ضوء الارتباط بالله القادر المتعال.

٣. تعميق حالة الإيمان والثقة بالله تعالى في وجود الإنسان وتكريسها، والتي تُعدُّ مصدرًا لكثير من البركات المعنوية الأخرى.

٤. تعلُّم أدب التحدُّث مع الله سبحانه وتعالى.

٥. تعلُّم كثيرٍ من المعارف الإلهية السامية؛ ففي حالات الدعاء هذه تسنح الفرصة لأكمل موجودات عالم الإمكان كي تفتح على الحقِّ تعالى في ارتباط مباشر، كما هو الحال بين الحبيب وحببيه، ارتباط صميميٍّ لم تلحظ فيه قدرات الإنسان

الإدراكية وإمكانياته المحدودة، وكأنَّ الإنسان الكامل قد تجلَّى لله تعالى بأبهى تجلياته وأسماها عبر هذه المناجاة.

٦. تربية الإنسان الكامل وإعداده؛ ذلك أنَّ المضمون الرفيع للدعاء يكشف عن علوِّ شخصيَّة الإنسان الداعي، غير أنَّه من وجهة نظر تربويَّة، يُظهر غرض الدَّاعي في توجيه الأفراد جميعهم - الذين يتطلَّعون إلى الكمال والرفعة - إلى التعالي والصعود إلى قُلل الكمال السامية^(٥).

٧. يُعدُّ الدعاء أسلوباً تعليمياً إلقائياً؛ لأنَّ الإنسان المسلم يقوم بعمل مزدوج يمكن أن نصنِّفه في قائمة الأساليب الإلقائية، فهو - الإنسان المسلم - يقرأ الدعاء بوصفه نصّاً، ويسمعه شخصياً أو يتلقَّاه مسموعاً من غيره إذا كان نصُّ الدعاء مقروءاً من الآخرين، وسواء كان النصُّ مقروءاً من الداعي، أم من غيره، فإنَّ طبيعة هذا الجهد التعليميَّ الإلقائيَّة؛ لأنَّ الداعي يقرأ والمستمع يتلقَّى، فيبقى نصُّ الدعاء مقصوراً على القراءة والاستماع، فإنَّ الإنسان الذي يبارسه يكون قارئاً ومستمعاً ومتلقياً في آنٍ واحد، وبهذا المعنى قد يكون الدعاء نوعاً ونمطاً من التعلُّم الذاتيِّ.

٨. ينمِّي الدعاء أساليب التعبير العربيِّ ويصقل القدرات اللغويَّة للفرد، ويمدُّه بثروة من مفردات اللُّغة وألفاظها؛ وذلك لأنَّ الدعاء يمتاز بأعلى أساليب البيان العربيِّ ولاسيما الذي صاغه الرسول الأكرم ﷺ وأئمَّة أهل البيت ، وهذا يؤدِّي إلى تنمية هادفة لقدرات الفرد على الفهم اللغويِّ، وتدريبه على الطلاقة اللفظيَّة، فالعقل المسلم بعد ممارسته للدعاء كتجربة وجدانيَّة حيَّة يتقمَّص هذه الثروة الهائلة من مفردات اللغة، ويتمثَّلها في أحاديثه ومواقفه الحوارية.

٩. يقدم الدعاء معرفة تحليلية مستفيضة للنفس الإنسانية ودراسة حالاتها المتعددة سواء في حالتها السوية، أم في حالتها غير السوية، ويجدد طرائق تشخيص أمراضها وسبل معالجتها، ويرشد العقل المسلم إلى الأساليب الصحيحة التي تعينه على مواجهة المشكلات النفسية وأمراض السلوك السوي، وسمات السلوك العصبي، وذلك في ضوء إمداد المسلم بمفاهيم عبادية في حقل الصحة النفسية، وتأسيس مبادئها المستمدة من الأدعية في عقل الإنسان المسلم.

إن ابن طاووس الحلي يمثل مدرسة الأدعية والمناجاة أحسن تمثيل، ولا غرو أنه من رواد هذه المدرسة بلا منازع، فقد ترك لنا إرثاً دعائياً عظيماً نقف له إجلالاً وتعظيماً وإكباراً.

أحاط ابن طاووس بالأدعية والمناجاة سواء أكانت في السنة، أم في الشهر، أم في الأسبوع، أم في اليوم والليلة، وهذا التدرج يعدُّ منهجاً جديداً في التأليف لم نعهده من قبل، فألف كتاب (الإقبال بالأعمال الحسنة فيما يعمل مرةً بالسنة)، وهو مختصُّ بأعمال السنة، وكتاب (الدروع الواقية) في أعمال الشهر، وكتاب (جمال الأسبوع) في أعمال الأسبوع، وكتاب (فلاح السائل) في أعمال اليوم والليلة.

المبحث الثاني

الشمولية

لا جرم أنّ النظريّات الأخلاقيّة تتطلّب أن تكون شموليّة بطرائق أقرب، فقد يُطلب منها مثلاً أن تنطبق على الناس جميعهم، وقد تلتزم بمبدأ هو من قبيل القاعدة الذهنيّة يُشترط فيه أن يسلك المرء تجاه الآخرين على النحو الذي يجب أن يسلكه تجاهه، فالشموليّة بوصفها إحدى معايير الحكم على النظريّات الأخلاقيّة، إنّما تعني وجوب قيام النظريّات الأخلاقيّة الملائمة بتفسير كلّ ما يتوجّب عليها تفسيره من حقائق^(٦).

والحقّ أنّ النظرة القائمة اليوم على تقديم الحضارة الغربيّة على أساس المادّيّات لا على أساس التقويم الأخلاقيّ نظرة خاطئة ومتهافئة، على الرغم من أنّنا نجد لها صدّى عند كثير من الناس بله بعض علماء المسلمين، فليس للإنسان وجود ومرتبة إلّا الأخلاق ومن دونها يحتلّ نظام الحياة وتفسد مقاصد الكون، بل إنّ السمة الأخلاقيّة، والسمة الإنسانيّة شيء واحد^(٧).

فأول أثر للإيمان أنّه سندٌ للأخلاق، أي إنّ الأخلاق مع أنّها من رؤوس الأموال الكبيرة في الحياة، لا يكون لها أساس وقاعدة بغير الإيمان، ذلك أنّ أساس جميع الجذور الأخلاقيّة ومنطلقها، بل إنّ سلسلة المعنويّات برمتها مبنيّة على الإيمان الدينيّ، أي الإيمان بالله والاعتقاد بوجوده، فالكرامة، والشرف، والتقوى، والعفة، والاستقامة، والتضحية، والإحساس، والمسالمة مع خلق الله، والتمسك بالعدالة وبحقوق الإنسان،

وجميع الصفات التي تُعدُّ من فضائل البشر، والتي يقدِّسها الأفراد والشعوب كافة، ويدَّعيها حتَّى لا يملكها، مبنيةً جميعاً على مبدأ الإيَّان^(٨).

انماز الخطاب الأخلاقيّ عند ابن طاووس بشموليته العامّة العالميّة، فهو خطاب إنسانيّ، وأنّ المعرفة (معرفة الله ﷻ) محكومٌ بحصولها للإنسان دون ما ذكره أصحاب اللسان؛ لأنّهم لو عرفوا من مكلف ولد على الفطرة حرّ عاقل عقيب بلوغه ورشده بأحد أسباب الرشد أنّه قد ارتدّ برّدّة يُحكّم منها ظاهر الشرع بأحكام الارتداد، وأشاروا بقتله وقالوا: قد ارتدّ عن فطرة الإسلام، وتقلّدوا إبّاحة دمه وماله، وشهدوا أنّه كفر بعد إسلام، فلولا أنّ العقول قاضية بالاكْتفاء والغناء بإيَّان الفطرة، ودون ما ذكره من طول الفكرة، كيف كان يحكم على هذا بالردّة؟ «وكيف كان الله ﷻ يبيح دمه وماله وما أحسن به إليه، وما مضى عليه من الزمان بعد بلوغ رشاده ما يكفيه لتعلّمه من أستاذه، ومن ملازمته وتردّده، والله ﷻ أرحم من الخلق كلّهم بعباده، وما أباح دمه إلّا وقد اكتفى منه بما فطره عليه، وبما يسعه بأقلّ زمان بعد إرشاده لاعتقاده»^(٩).

وفي ظلّ النصوص الطاووسية البالغة الدلالة، والذائعة التداول، نجد أنّها ذات شموليّة في آداب الدعوة، والتبليغ الأخلاقيّ، ويتجلّى الموقف الطاووسيّ الشموليّ في جوابه على استفتاء هولاء العلماء: «أيّهما أفضل، السلطان الكافر العادل أم السلطان المسلم الجائر؟ وجمع العلماء بالمستنصرية لهذه الغاية، فلمّا وقفوا على الفتيا أحجموا عن الجواب، وكان رضيّ الدين عليّ بن طاووس حاضرًا هذا المجلس، وكان مُقدّمًا مُحترّمًا، فلمّا رأى إحجامهم، تناول الفتيا، ووضع خطّه فيها، بتفضيل العادل الكافر على المسلم الجائر، فوضع الناس خطوطهم بعده»^(١٠).

هذه الحادثة لم يذكرها سوى ابن الطقطقا (ت ٧٠٩ هـ)، وسبب عدم ذكر المؤرّخين لها يعود إلى تخرّج من تحدّث عن هذه الواقعة من جعل السلطان الكافر العادل أفضل

من السلطان المسلم الجائر في مجتمع إسلامي يدين خليفته بالإسلام، وهو أمر غاية في الخطورة، وهذه الفتوى تُصدّم شعور المسلم المثاليّ الذي يعيش أجواء النظرية دون التطبيق، ويُنظر إلى الشكل والاسم، أكثر من المضمون والجوهر، وقد استلهم السيّد ابن طاووس على ما يبدو الجواب عن هذه الفتوى من القرآن الكريم، فهو المصدر الأوّل الذي سدّد خطاه وحدّد سيرته الثقافية، فقد أتصل به منذ صغره، وانكبّ على حفظه، وتدبّره، وفهم دلالاته ومعانيه، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ [سورة النساء: الآية ١٣٥]؛ إذ تميّز بصفتي الشجاعة والمسؤوليّة بما هما قيمتان تؤكّدان الفعل والإنجاز، فهو يرسخ معنى الالتزام القرآنيّ الأخلاقيّ، وهذا ما اهتدى إليه ابن طاووس الحليّ حينما صدع بكلمة الحقّ في مجلس استفتاء هولاء العلماء.

إنّ وضع الناس خطوطهم بعده، يدلّ على أمرين: أولهما، ما لابن طاووس من مكانة علميّة سامية وثقة كبيرة عند علماء العراق على اختلاف مذاهبهم، والآخر يدلّ على شموليّة وعدم تعصّبه إلّا للحقّ وحده، ويبدو أنّ ابن طاووس جعل نصب عينيه قاعدة (ارتكاب أقلّ القبيحين وأهون الشرّين)، ولا شكّ في أنّ كفر الكافر عليه ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ [سورة فاطر: من الآية ٢٩]، وأمّا عدله فللناس؛ وأمّا المسلم الظالم فظلمه لنفسه وللناس، وفي ظلم الناس يختلّ النظام الاجتماعيّ؛ لأنّ العدل أساسُ المُلك، فقيح واحد وهو ظلم الكافر لنفسه أقلّ من قبيحين ظلم النفس وظلم الناس، وشرّ واحد أهون من شرّين^(١١)، فقد روي عن سيّد الكائنات عليه السلام: (يبقى الملك بالعدل مع الكفر، ولا يبقى بالجور مع الإيمان)^(١٢)، وقال الإمام الصادق عليه السلام: (من نكد العيش السلطان الجائر...) ^(١٣)، فالسلطان الجائر، أذى دائم، ومنكر مستمرّ، تضيق الدنيا به، وإن رحبت، وأذاه يُفسد الدنيا وإن صلحت.

يقيناً ظهر في ضوء فتوى ابن طاووس الحليّ التي حدّد فيها أفضليّة الكافر العادل على المسلم الجائر، أنّه كان يُعدُّ القيم الأخلاقيّة هي الأساس في التفاضل بين الناس حتّى لو كان فاقدها مسلماً، وهذا منهج قرآنيّ عظيم، وفهمٌ وحيائيٌّ وسيع، فقد انتصر القرآن الكريم للقيم الأخلاقيّة، والتعاليم الإنسانيّة السامية، فجاء الخطاب القرآنيّ للإنسانيّة أجمع باختلاف مشاربهم وعقائدهم، فالقيمة الأخلاقيّة هي التي تعلو، ومن هنا اكتسب القرآن الكريم (كتاب الله الأكبر) صفة العالميّة والشموليّة والجامعيّة، ما لم يكتسبه كتاب آخر، وقد استطاع ابن طاووس اقتناص هذا الأسلوب العظيم، والتصور البديع موظّفًا إيّاهما في فتواه الشهيرة.

وقد نال ابنُ طاووس بُقْياه هذه مقامًا محمودًا ومنزلةً كبيرةً في نفس مَنْ يرمون العدل، ويقصدون المساواة، وأدّت، وسبّبت بُقْياه هذه حقناً لدماء المسلمين وخيراً عميماً للأمة^(١٤)، ومن فوائد ذلك وشموليّته، ما أشار إليه بقوله: «ظفرتُ بالأمان والإحسان، وحُقنت فيه دماؤنا، وحُفظت فيه حرْمنا وأطفالنا ونساؤنا، وسلم على أيدينا خلقٌ كثيرٌ»^(١٥).

وتأسيساً على ما ذكرناه من قبل، يمكن القول: إنّ ابن طاووس من المؤسّسين لـ(فقه الأخلاق) في ضوء ما وقفنا على خطابه الأخلاقيّة المبثوثة في كتبه، فقد أعطى للعبادات والمعاملات مدياتها وتحوّماتها الرحبات كاشفاً أسرارها ودقائقها، قال في حقيقة (الصيام): «وأما حديث الصيام فإنّما صورته أنّك تصوم بالليل في المنام فقلب الله ﷻ تدبير الحال وجعل لك شوقاً وذكراً جميلاً في الأعمال، فصرت تأكل بالليل وتصوم بالنهار، وهو رياضة الأبرار، وبما علّمهم الله ﷻ منه ومن غيره امتلأت قلوبهم من الأمور وأطلعوا على ما أراد الله ﷻ إطلاعهم عليه من الأسرار، فابدأ يا ولدي بصوم العقل والقلب وعن كلّ ما يشغل عن الرّبّ وعن الإفطار بالذنب، وذكّر نفسك

أنه لو طلب سلطان مثل ذلك منك وأن تتقرّب إليه وأنت في حضرته بين يديه بشعار المراقبة بخدمته والإمساك عمّا يبعدك عن حضرته، أما كنت تفرح بهذا التكليف وتعتقد أنه من التشريف»^(١٦).

وتجلى أخلاقيّة فقه العبادات في موضوع الجهاد في ضوء التعامل مع الحكام الظالمين من جهة، والمخالفين من جهة أخرى، من أجل إنقاذ بيضة الإسلام والحفاظ عليها، قال ابن طاووس: «إنه كان قد غلب التتار على بلاد خراسان وطمعوا في هذا البلاد، ووصلت سراياه إلى نحو مقاتلة بغداد في زمن الخليفة المستنصر جزاه الله عني بما هو أهله، فكتبت إلى الأمير (قشتمر)، وكان إذاك مقدّم العساكر خارج بلد بغداد، وهم مبرزون بالحليم والعدد والاستظهار، ويخافون أن تأتيهم عساكر التتار، وقد نودي في باطن البلد بالخروج إلى الجهاد، فقلت له بالمكاتبة استأذن لي الخليفة وأعرض رقعتي عليه في أن يأذن لي في التدبير ويكونون حيث أقول يقولون وحيث أسكت يسكتون حتّى أصلح الحال بالكلام، وقد خيف على بيضة الإسلام»^(١٧)، ويظهر أن الجهاد يتخصّص بحالتين:

الأولى: مع صاحب الأمر والزمان عليه السلام.

والثانية: إذا كان فرضاً عاماً يخاف على الإسلام أن تذهب بيضته وتُستأصل شأفته، ففي هذه الحالة يصحّ الجهاد حتّى مع غير من تجب طاعته^(١٨).

وإزاء الحالة الثانية تكشف مسألتين:

المسألة الأولى: إن خلافة المستنصر مخالفة لرسول الله صلى الله عليه وآله ولأمير المؤمنين عليه السلام، لذا لا تجب طاعته، وهو الذي يفسر لنا شدة رفضه لطلب الخليفة بالمشاركة في دولته بأيّ منصب من المناصب التي عُرضت عليه.

المسألة الثانية: إنَّ المرتكز الشموليَّ والخوف على بيضة الإسلام هما اللذان فرضا عليه أن يعرض على المستنصر أن يكون رسولاً إلى قائد الجيش المغوليِّ، وهذه الحالة تكون مع المستنصر أو غيره، فالأهمُّ هو إنقاذ بيضة الإسلام، يقول ابن طاووس: «وإن ابتليت بجهاد مع غير من يجب طاعته فإن كان فرضاً عاماً يخاف على الإسلام أن تذهب بيضته وتستأصل شأفته، فإنَّك تعلم أنَّ النفوس والرؤوس وكلُّ ما يعزُّ عليك من الله ﷻ إليك فأحقُّ ممَّا يذلُّ كلُّ عزيزٍ والدنيا كلُّها لو اهبها وأجمل ما أنفقت ذخائر العقول في مراد جالبها، ومن أحمقُّ بالأجساد والأرواح والعقول بكلِّ ما في الوجود من الله ﷻ الذي أنت وما في يدك صادر عن ذلك الجود، فمتى دعاك إليه فإيَّاك أن تتوقَّف من حمل نفسك ومالك إليه، فإنَّك إن بخلت بها عليه في بذلها سلَّبتها عزرائيل ﷻ أو غيره وضاع منك شرف الخدمة بتسليمها اليه وبذلها في إعزاز دينه الذي يعزُّ عليه»^(١٩)، فتدرج العبارات بلحاظ السُّلم الحجاجيِّ، يُعطي نتيجة إيجابية أرادها ابن طاووس الحليِّ، وهي الشهادة والكرامة والعزُّ، وفي أدناه مخطَّط يوضِّح حقيقة نيل الشهادة العظيمة.



فليت شعري، لقد أسَّس ابن طاووس الحليِّ (أخلاقيَّة الجهاد) في هذا الخطاب،

وهو مبحث فقهي، أخلاقي يجدر بالباحثين الأكارم أن يوسّعوا منه، ويرسموا الخطوات الثابتات له عند ابن طاووس خاصّة وعند فقهاء المدرسة الحليّة عامّة؛ من أجل الوصول إلى مقاربات تداوليّة فقهية من جهة، ومقاربة قواعد الفراغات من جهة أخرى، ولاسيما أنّنا نعيش في عصر الخلافات، ومحاولة الانقضاض على بيضة الإسلام واستئصال شأفته من غير المسلمين ومَن يدعون الاسلام نفاقاً، ويسلكون مسلك الزهّاد ومذاهب العبّاد كذباً كالحركات التكفيرية المتنوّعة بمسمّياتها.

وقد أتبع طريقة (التسلسل الاجتماعي) في الإفادة من نهج القرآن ونظّمه في آداب الخطاب الأخلاقي، ولاسيما الدعاء، فقد آلى على نفسه ألا يشمل دعاءه المؤمنين والمسلمين فحسب، بل شمل دعاؤه الفجّار والمعاندين، فأساليب الدعاء مفتوحة أمام العبد شاملة، يقول: «وكنْتُ في ليلة جلييلة من شهر رمضان بعد تصنيف هذا الكتاب بزمان - يقصد كتاب الإقبال - وأنا أدعو في السحر لمن يجب أو يحسن تقديم الدعاء له، ولي ولمن يليق بالتوفيق أن أدعو له، فورد على خاطري أن الجاحدين لله ﷻ ولنعمه، والمستخفين بحرمته، والمبدلين لحكمه في عبادته وخليقته، ينبغي أن يُبدأ بالدعاء لهم بالهداية من ضاللتهم»^(٢٠). معللاً ذلك بأنّ جنائتهم على الربوبية، والحكمة الإلهية، والجلالة النبوية أشد من جناية العارفين بالله وبالرسول ﷺ؛ فيقتضي تعظيم الله وتعظيم جلاله وتعظيم رسوله ﷺ وحقوق هدايته بمقاله وفعاله، أن يُقدم الدعاء بهداية من هو أعظم ضرراً وأشدّ خطراً، إذ لم يقدر أن يزال ذلك بالجهاد، ومنعهم من الإلحاد والفساد، فشمّل دعاؤه كُلاً ضالاً عن الله بالهداية إليه، ولكلّ ضالاً عن الرسول بالرجوع إليه، ولكلّ ضالاً عن الحقّ بالاعتراف به والاعتماد عليه؛ ثمّ بعد ذلك يتسلسل دعاؤه فيدعو لأهل التوفيق والتحقيق بالثبوت على توفيقهم، والزيادة في تحقيقتهم، ثمّ بعد ذلك يدعو لنفسه، ومَن يعنيه أمره بحسب ما يرجوه من الترتيب^(٢١).

وقد استلهم ابن طاووس هذه الشمولية في الدعاء من القرآن الكريم، مستوحياً شفاعته إبراهيم عليه السلام في أهل الكفر، قال الله تعالى: ﴿مَجَادِلْنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود: ٧٤-٧٥]، فمدحه عليه السلام على حلمه وشفاعته ومجادلته في قوم لوط الذين قد بلغ كفرهم إلى تعجيل نقمته، واستلهم هذا المعاني الجليلة أيضاً من قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة: الآية ٨]. ومن سيرة الرسول عليه السلام فقد كان كلما بالغ قومه الكفار في إيذائه، قال عليه السلام: (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون)، وقول نبينا عليه السلام: (اصنع الخير إلى أهله وإلى غير أهله، فإن لم يكن أهله، فكن أنت أهله) ^(٢٢)، وحديث عيسى عليه السلام: (كن كالشمس تطلع على البر والفاجر) ^(٢٣)، وقول الإمام علي عليه السلام: (وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم...، فإنهم صنفان إما أخ لك في الدين وإما نظير لك في الخلق) ^(٢٤)، ويكفي أن الرسول عليه السلام بعث رحمة للعالمين ^(٢٥).

وتأسيساً على ذلك كله رفع ابن طاووس الحلي الجماعية والشمولية؛ لأن «الفردية تعلق فتكون الاستبداد، وتسفل فتكون الأنانية، وإن الجمعية ترتفع فتكون الإنسانية، وتنخفض فتكون العصبية، وإن بين الإنسانية والعصبية، شعبا يعز، وأمة ترقى، وذكراً يبقى، وأثراً يخلد، ولكن بين الاستبداد والأنانية، تحكم الهوى وشقاء العيش، وذلل الأبد» ^(٢٦). ومن هنا فإن الخطاب الأخلاقي عند ابن طاووس كان مؤثراً؛ لأنه إنما به خصال أخلاقية ثلاث: الفضيلة، والسداد، والبر، وهي من الصفات التي حددها أرسطو في الخطيب الناجح ^(٢٧).

هذه الرؤية في الخطاب التفت إليها المعاصرون حرصاً منهم بالارتقاء بالدعوة الإسلامية؛ لكون الإسلام يقصد خير المسلم وغيره، إذ «كان الأولى بالخطاب

الإسلامي بعد أن بلغ أشده وأتسعت قاعدته أن يوجّه خطابه إلى المخالفين له في الفكر والاتجاه، ولا يدعهم في ضلالهم القديم، وجهلهم الموروث، وسوء ظنهم بالإسلام ودعائه...»^(٢٨).

ونطوي هذه السمة الأخلاقية عند ابن طاووس بالقول: إن ابن طاووس أراد بناء نسق أخلاقي شامل من أجل الاقتراب من الآخر بشكل كبير؛ واستنهاضاً من أجل وضع الإنسان على المسار الصحيح نحو القمم العليا التي هي عنوان التلاقي والتحاور والتواصل بين الشعوب والأمم والثقافات والكيانات.

المبحث الثالث

العقلانية

لا يخفى أن أغلب تعريفات علم الأخلاق تؤكد الجانب العقلي فيه، وأن العقل وحده هو القادر على تشخيص المبادئ والخصال من دون تدخل لأي طرفٍ آخر، يقول محمد جواد مغنّية: «علم الأخلاق: هو مجموعة من المبادئ المعيارية التي ينبغي أن يجري السلوك البشري على مقتضاها، والياء في المعيارية نسبة إلى المعيار الذي يُقاس به غيره، غير أن مبادئ الأخلاق ترسم طريق السلوك الحميد وتحدّد أهدافه وبواعثه»^(٢٩).

لا جرم أن الأخلاق أساس الحياة، وبالأخلاق يرتقي الإنسان إلى الكمال، وبها نحصل على مجتمع متماسك وقويّ وآمن، تسود فيه العدالة والحرية والودّ والمساواة، فكلُّ عملٍ يستحسنه العقلاء، فهو من الأخلاق، أو له صلة بالأخلاق، فالإيفاء بالعهود، وأداء الأمانات، والإحسان والبرّ، ومساعدة المحتاج والمريض، وغيرها من الأخلاق التي يرتضيها الرحمن عزّ وجلّ^(٣٠).

إنّ العقل آلة أخلاقية، منقاد بالطبع للقوانين الأخلاقية الأبدية، وهو يعطيها صدر مجلس وجدانه، ومن هنا فإنّ كلّ قضية أخلاقية لها وجودها بالحمل الشائع في منزلة العقل الأخلاقيّ، وهكذا يبدو أنّ العقل أخلاقيّ بالذات ولا يصل إلى الأخلاق إلا بعد التأمل والبحث أو الإكتساب، ومن ثمّ فإنّ الإنسان أخلاقيّ بالطبع، يتلمّس أثر قوانين الأخلاق في مرحلة الوجدان الأوّليّ الضروري^(٣١).

وقد أبدع محمد باقر الداماد (ت ١٠٤١ هـ) في بيان أثر العقل في إدراك المعقولات والأسرار، قال: «فلا جرّم... لا حشمة، ولا جاه للإنسان أعظم من إدراك المعقول الجنة المزيّنة المحلاة بأنواع حليها ونعيمها وزنجيلها وسلسيلها إدراك المعقولات، ودركات جهنم بأغلالها وسلاسلها وحميمها وزقومها متابعة الأشغال الجسائية ومعانقة القوى الدائرة الحسانية»^(٣٢).

حرص ابن طاووس إلى الدعوة إلى إعمال العقل، والتنشيط العقلي، فمن لوازم الخطاب الأخلاقي استثمار العقل وتوظيفه، بوصفه عامل التمييز ومناطق التكليف؛ فهو أعزُّ منال وسبب التكريم، فلزم الحفاظ عليه حفظاً لما أنيط به، وبالعقل كرم الإنسان وفُضِّل على سائر المخلوقات؛ ونلمح هذا التصور في جملة من الألفاظ التي جاءت في خطاب ابن طاووس الأخلاقي، منها: (يفكر، العقل، كمال العقل، العاقل، معقولة، القلب البصير، الحكمة، التذكير، حكم الأبواب...) وغيرها من الألفاظ الحكيمية الهادفة، وقد ربط هذا الخطاب بهدف أسمى هو تقوى الله والسعي لرضاه، والإخلاص له ﷻ، لذلك حرص على عدّ العقل حجة في أدبياته، ومما تجدر الإشارة إليه أن مسألة العقلين (النظري والعملي) لم تكن محلّ وفاق تامّ في طبيعة وظيفتها عند الفلاسفة وعلماء الأخلاق، ففي حين يذهب فريق إلى أن الأول يُعنى بالمسائل الفلسفية النظرية خارج دائرة الأخلاق، والآخر يُعنى بالمسائل العملية^(٣٣)، يذهب آخرون إلى فهم مختلف قوامه أن فلسفة الأخلاق أيضاً من شؤون العقل النظري، وأمّا وظيفة العقل العملي فتتعدى ذلك إلى البعث والتحريك^(٣٤).

وفطن ابن طاووس إلى أن العقل هو البوصلة الحقيقية للمعارف، قال: «أما تعلم أن العقل الذي هو النور الكاشف عن المعارف ما هو من كسبك، ولا من قدرتك وأن الآثار التي تنظر إليها ما هي من نظرتك، وأن العين التي تنظر بها ما هي من خلقك...»^(٣٥).

ويرى أيضًا أن المعرفة بالعقل لازمة، وهو أصل العلوم كلها، وبه حصلت المعرفة، بالفرق بين الحقِّ والباطل^(٣٦).

وسنفلّي بعضًا من النصوص التي تُظهر هذا المرتكز في خطابه، ففي تفسير قوله تعالى: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: الآية ٧]، رادًا على الفراء الذي قيّد (الآيات المتشابهات) بالحروف المقطّعة التي ابتدأت بها بعض السور، قال ابن طاووس: «وأما تعيين الآيات المتشابهات بالحروف فهو أيضًا تحكّم عظيم، وليس في ظاهرها ما يقتضي ذلك، ولا إجماع على ما ذكره، ولا حجة من عقل ولا نقل، والقرآن فيه من المتشابه التي قد صنّف المسلمون فيه المجلّدات ما لا يخفى والإجماع على أنه متشابه»^(٣٧). ويبدو أن ابن طاووس قد نفى تقييد بيان تفسير الآيات المتشابهات بالحروف المقطّعة، وأشار إلى أن القرآن قد انطوى على آيات متشابهات غير منحصراتٍ بالحروف المقطّعة، فالإجماع والحجج النقلية والعقلية تؤكّد وجودها في القرآن الكريم.

ومن المرتكزات العقلية، وطرائق التدليل العقليّ التي التزم بها ابن طاووس الحليّ في مختلف خطابه الأخلاقية، تدلّ على قوّة عقلائيّته من جهة، ورسوخ أخلاقيّته من جهة أخرى، ناهيك عن اتّساع حواريته التي كان لها السهم الأوفر في ظهور القيم الإسلامية الأخلاقية عامّة، والقيم الإسلامية المنبثقة من أهل البيت عليهم السلام خاصّة، وإذا تأملت خطابات ابن طاووس الأخلاقية، رأيت هذه المرتكزات العقلية تصرخ فيها، ففي معرض إثباته ولاية أمير المؤمنين عليه السلام، وإمامته من لدن المصطفى عليه السلام بأمر إلهي، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [سورة المائدة: الآية ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [سورة الرعد: الآية ٧]، وقد استظهر ابن طاووس هذه الولاية استظهارًا عقليًّا؛ إذ

لا يُعقل أن يترك النبيّ محمد صلى الله عليه وآله أمته همتلاً بلا راعٍ ولا رابطٍ، فهو يجعل على المسلمين رئيساً وراعياً حينها يذهب في غزوة أو سرية من جهة، ويؤمّر رئيساً على العسكر، أو السرية من أجل ضمّ شملهم ورضّ صفوفهم وإصلاح فاسدهم من جهة أخرى، فضلاً عن ذلك فإنّ العقل يوجب استكتاب الوصايا قبل الانتقال إلى الرفيق الأعلى عليه السلام، قال ابن طاووس: «ومنها أنّ جدك صلى الله عليه وآله عليه أفضل السلام والتحية ما كان ينفذ عسكراً أو سريةً إلّا ويجعل فيهم رئيساً عليهم يضمّ شملهم ويصلح فاسدهم ويحسن إليهم، فكيف تقبل العقول أنّه يترك الأمة كلّها بعد وفاته إلى الله تعالى في مسافة مدتها... ست مائة وتسع وثلاثون سنة وبعدها إلى يوم القيامة؟ ولا يجعل لهم رئيساً يصلح حالهم ويصونهم عن الذي جرى عليهم من الاختلاف والندامة، ومنها نصوص الله تعالى وتقدّس كماله على جدك مولانا عليّ بن أبي طالب صلوات الله وسلامه عليه بالآيات الباهرات في ذاته وصفاته وفي مقاماته، وتعريف الأمة بكرامته وما أخبرها من أسرار الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله الدالة على أنّها نصوص عليه بأن مرجع الأمة في جميع أمورهم إليه... فكيف قبلت العقول أنّ من يُعلّم الناس الوصية لمن يخلفونه يترك الوصية بهم بالكليّة؟ وقد علم أنّهم يخلفون بعد وفاته ويخالفونه، ومنها أنّ كلّ منصفٍ عاقلٍ فاضلٍ من أهل الاسلام بعيد أن يقبل عقله أنّ محمداً جدك عليه وآله أفضل الصلاة والسلام يتلو عليهم قرآناً يتضمّن:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [سورة المائدة: الآية 3]، ثمّ يدعي مدّع أنّه صلى الله عليه وآله مات وترك أمته متحيرين في الإمامة، ومنها أنّ جدك محمداً صلى الله عليه وآله كان ما يخرج في غزوةٍ إلّا ويجعل في المدينة نائباً ومدّة الغزوة قصيرة في حياته، فكيف يقبل العقل أنّه ترك الأمة مهملة من نائب ينصّ عليه؟ والمدّة طويلة خطيرة كثيرة بعد وفاته⁽³⁸⁾. ونحن نغتنم هذه الفرصة ونفيد من إشارات ابن طاووس الحليّ في الاستدلال على إمامة أمير المؤمنين عليه السلام، نلّف نظر القارئ العزيز إلى أنّ ابن طاووس

الحليّ قد انبرى في تصنيف كتابين جليلين، هما: (اليقين باختصاص مولانا عليّ عليه السلام بإمرة أمير المؤمنين)، و(التحصين لأسرار ما زاد من أخبار اليقين)، فقد شحنها وحشدهما بالروايات المتواترة سنداً، والمضبوطة متنّاً ودلالةً في إمامة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، وألقابه وأحواله كافة.

وعودُ على بدء، فالعقل آليّة حضورية ومقياس فعّال في التحكّم في الأقوال والأفعال؛ والتكاليف العامّة في الفقه هي الواجبات والمحرمات، والتكاليف المعمّقة هي المستحبات والمكروهات، وهي التي تربّي الفرد في خطوة أعلى من مجرد الالتزام بها هو إلزامي في الشريعة، فتكون المستحبات والمكروهات الفقهية هي أحكاماً أخلاقية بطبيعتها^(٣٩). وقد تنبّه ابن طاووس في خطابه الأخلاقي للعلاقة القوية ما بين التكليف والأخلاق؛ لأنّ شروطها متقاربة جدّاً، فمن هذه الشروط التي أوردها ابن طاووس أنّ يكون المكلف عاقلاً، ومن هنا وصّى ابن طاووس ابنه بالاحتفال سنوياً بسنّ التكليف بوصفه كمال العقل، فعيد ميلاد المرء عند ابن طاووس ليس بيوم ولادته، وإنّما بكمال عقله وهو سنّ التكليف، قال: «فإذا وصلت إلى الوقت الذي يشرفك الله تعالى يا ولدي محمّد بكمال العقل، وهو صلى الله عليه وآله أهل من استصلاحك لمجالسته ومشافهته، ودخول مقدّس حضرته لطاعته، فليكن ذلك الوقت عندك مؤرّخاً محفوظاً من أفضل أوقات الأعياد وكلّما أوصلك عمرك المبارك إليه في سنة من السنين فجدّد شكرًا، وصدقات وخدمات لو اهب العقل الدال لك على شرف الدنيا والمعاد... وإن بقيت حيّاً على ما عودني الله تعالى من رحمته وعنايته، فإنني أجعل يوم تشريفك بالتكليف عيداً أتصدّق فيه بمئة وخمسين ديناراً عن كلّ سنة بعشرة دنانير»^(٤٠).

ومن هنا فإنّ صلة التكليف بالأخلاق عند ابن طاووس يمكن إرجاعها إلى أنّ الأحكام الشرعية هي أحكام ذات صبغة أخلاقية واضحة، فضلاً عن أنّ دائرة الوجوب

تشمل ما هو أوسع من الوجوب الشرعي، مثل وجوب المحافظة على النظام، أو حتى الوجوب الذي يمليه المجتمع نتيجة أعراف معيَّنة، ففي جميع هذه الأحوال يكون الإنسان مأموراً ومكلفاً أمام الجهة الموجبة وإلا تعرَّض إلى العقاب كلُّ بحسبه.

وقد ربَّى ابن طاووس آليَّة العقل هذه على روح الاستقلال في الفهم والنظر، وأتباع البرهان ونبذ التقليد، ويتجلى ذلك واضحاً بوصيَّته لابنه، راسماً له بأسلوب بديع الصراع السرمدى بين العقل من جهة، والهوى والشيطان من جهة أخرى، وذلك في رفضه وردّه على من أشار عليه أن يكون حاكماً بين المتخاصمين على عادة الفقهاء والعلماء من السلف الماضين، ومصلاًحاً لأمر المتحاكمين، يقول: «فقلت لهم إنني قد وجدت عقلي يريد صلاحي بالكلية؛ ونفسي وهواي والشيطان يريدون هلاكي بالاشتغال بالأمر الدنيويَّة، وأنا قد دخلت بين عقلي ونفسي والشيطان وهواي على أن أحكم بينهم بمجرد العدل ويتفقون كلهم مع العقل فلم يتوافقوا على الدوام على صواب هذه الأحكام، وقال لسان حال العقل إنه لا يجوز أن يكون تبعاً لهم على الهلاك والجهل وماتهماً في عمر طويل أن أحكم بين هذين الخصمين أو أصالح بينهم مصالحة تقرُّ بها العين وينقطع معهم المنازعات والمخالفات، فمن عرف من نفسه الضعف عن حكومة واحدة مدَّة من الأوقات كيف يُقدم على الدخول فيما لا يُحصى من الحكومات»^(٤١)، ثم يقول مستلهماً قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: الآية ٢٣]، «وقلت لهم انظروا من اتفق عقله ونفسه وطبعه وهواه وقوي على الشيطان وصاروا كلهم يداً واحدة في طلب طاعة الله ورضاه، وتفرض من مهاتمه المتعيَّنة عليه، فتحاكموا عنده، فإنه يكون قادراً بتلك القدرة على فصل الحكومات والمصالحات إذا حضر الخصومة بين يديه، فاعتزلت يا ولدي محمد عن رياسة هذا الباب، ورأيت في

الله ﷺ ونفسي شغل شاغل بمقتضى حكم الألباب» (٤٢).

فهو بهذا يسمو بعقله ويرفع من مكانته مثل أولي العقول الذين قال فيهم الله ﷻ:
**﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو
 الْأَلْبَابِ﴾** [سورة الزمر: الآية ١٨].

وأوضح ابن طاووس الحليّ الخطاب الأخلاقيّ بلحاظ العقل ممّا يتوصّل به إلى تهذيب النفس وتقوى الله ﷻ، فجعله حكماً في ذلك، قال: «ومن مهمّات الذي يريد الصلاة أن لا يدخلها كارهاً ويخرج عنها مستقيلاً، وإياك أن تقبل قول مَنْ يقول لك: إنّها تكليف، والتكليف ثقيل على القلوب، فإنّ هذا القول بعيد من رضى علام الغيوب، يقول ﷻ:
﴿حَبَبَ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [سورة الحجرات: الآية ٧]، فتردّ أنت عليه هذا القول المقدّس الصريح في القرآن، وتقول أنت بخلاف ذلك، وتُقدم على البهتان أيقبل عقلك أنّه ﷻ يريد منك أن تحبه ﷻ وتدّعي أنّك قد أحببته ﷻ، وتكره خدمته والتقرّب إليه، فهل يصحّ في العقل أنّ المحبّ يستثقل العمل في طلب رضا محبوبه أو يكره شيئاً ممّا يقربّه إليه؟» (٤٣). ولا يخفى أنّ ابن طاووس قد وصّى ابنه في ضبط هذه الآليّة كمال العقل من أجل الوصول إلى الأهداف المتبتغة والنتائج المرجوة، وإنّ سوء استعمال هذه الآليّة يؤدّي إلى نتائج غير محمودة.

ويمكننا القول: إنّ خطاب ابن طاووس لم يكن عاطفياً غير علمي، ولا يرتقي إلى مستوى معالجة الأوضاع الحرجة والملحّة للمسلمين في عصره، فكان بصيراً بالمجتمع وأحواله؛ بمعنى أنّه كان خطاباً عقلياً واقعيّاً لا يعيش بعزلة وانطوائية بعيدة عن الواقع، فهو خطابٌ أصيلٌ كاملٌ ينتسب إلى العمق الإسلاميّ.

ونطوي فقرات هذه السمة بأنّ الخطاب التهذيبيّ الأخلاقيّ الاستشهاديّ يعلو

على الخطاب النقديّ الاستدلاليّ، فأساسه قاعدة (اعتقاد القول حتّى يقوم الدليل على بطلانه)؛ وما ذاك إلاّ لأنّ مجال العقلانيّة الاعتقاديّة هو عالم القيم، فلو أنّها طبّقت على الوقائع؛ لأنزلت القانون الطبيعيّ منزلة الأمر التشريعيّ متعاملةً مع الأدنى بما ينبغي أن يعامل به الأعلى، في حين أنّ العقلانيّة الإنكاريّة مجالها عالم الوقائع، فلو أنّها طبّقت على القيم، لأنزلت الأمر التشريعيّ منزلة القانون الطبيعيّ، متعاملةً مع الأعلى بما ينبغي أن يُعامل به الأدنى^(٤٤).

المبحث الرابع

تعقيب الخطابات الإنشائية

إنَّ الخطاب الاخلاقيّ قد أُسسَ عنده على بنية الإيقاعات، وتعدُّد المعطوفات، والجمل التقريرية الطويلة القائمة على التأمل والاعتبار، أو على أساس - كما قلنا آنفًا - الاقتباس من الآيات القرآنية والأخبار، لذلك فإنَّ خطابه الأخلاقيّ، ولاسيما أنَّ أدعيته صالحة لكلِّ زمانٍ ومكان، وما تحليل ابن طاووس للنفس الإنسانية ومحاولة مغازلتها وملاطفتها إلاَّ ليجعل كلَّ قارئ مهتمًّا به كأنَّه هو المخاطب (المتلقِّي)، فهو يُشرك القارئ ويحاوره في ضوء التقنيَّات الحوارية (اعلم أنَّ...، قيل...، لعلَّك تقول...، فإنَّ قلت...، وغيرها من العبارات، وهي إستراتيجية خطابية يستحضر في ظلِّها القارئ بمختلف مراتبه المعرفية وتوجُّهاته العقديَّة والذهنيَّة؛ لإقناعه وإمتاعه وبثِّ الروح الأخلاقيَّة والإيمانيَّة فيه، فهو خطاب يُقرأ في كلِّ العصور، ولم يُنتج ليُقرأ في عصره.

من سمات الخطاب الاخلاقي الطاووسيّ تعقيب الأساليب الإنشائية وتلاحقها في نصوصه المختلفة، وهو ملمحٌ أسلوبيّ ظاهرٌ، توَسَّل به ابن طاووس من أجل تكشيف الدلالات واستظهار المعاني، فضلًا عن ذلك إرادة إيصال الشحنات والطاقات التعبيرية بكامل تعجيلها وزخمتها؛ رغبةً منه في الوصول إلى أقصى غايات التواصل والتحاوُر والإبلاغ مع المتلقِّين.

وعَى ابن طاووس نجاح خطابه الأخلاقيّ، وتحقُّق دلالات أفعال الكلام في ظلِّ

تعاقب الأساليب الإنشائية، سواء أكانت طلبية أم غير طلبية (أمر، نهي، استفهام، نداء، تمنّي)... وهذا ملمح أسلوبيّ مهمّ من أجل توالي الإيقاعات، واقتناص الدلالات المختلفة بوصفه نقيباً للطالبيين حينما يوجّهه للناس أجمع، وبوصفه أباً حينما يوجّهه إلى أهله وذويه، قال واعظاً ولده لاستلهاهم العبر من التاريخ ومآل الإنسان: «واعلم يا ولدي محمّد أنّني كنت يوماً أنظر في كتاب من التواريخ المذكورة، فقال لي قائل: في أيّ شيء تنظر؟ فقلت: أنا في حياة، وبين قبور أنظر إلى قوم بيننا هم في سرور وغرور إذ هجم عليهم هادم اللذات ومفرّق الجماعات وصاحب الشتات فقلّهم إلى محلّة الأموات وقطّعهم عمّا كانوا فيه من اللذات، وصاروا في ذلّ الحسرات وأسر الندامات»^(٤٥).

وقال مبيّناً أنّ الله رقيب بعباده، محذراً أهله جميعهم بالإقلال من مخالطة الناس؛ لكونها تشغل المرء عن ذكر الله ﷻ والتفرغ للعبادات: «واعلم يا ولدي محمّد ومن بلغه كتابي هذا من ذريتي وغيرهم من الأهل والإخوان علّمك الله ﷻ وإياهم ما يريد منكم من المراقبة في السرّ والإعلان أنّ مخالطة الناس داءٌ معضّل، وشغلٌ شاغلٌ عن الله عزّ وجلّ مذهل، وقد بلغ الأمر في مخالطتهم إلى نحو ما جرى في الجاهليّة من الاشتغال بالأصنام عن الجلالة الإلهية فاقبل يا ولدي من مخالطتك لهم ومخالطتهم لك بغاية الإمكان فقد جرّبته ورأيتّه يُورث مرضاً هائلاً في الأديان»^(٤٦).

ويظهر تلاحق الأساليب الإنشائية في الخطاب الطاووسي في حثّه على الاقتداء بسنة المصطفى ﷺ قولاً وفعلاً وتقريباً، وهي جماع الأخلاق والآداب لديه ﷺ: «أقول أنا: أيّها المسلم المصدّق بالقرآن، الممثل لأمر الله ﷻ، إياك أن تحالف قوله تعالى في رسوله: ﴿وَاتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾، اسلك سبيل هذه الآداب، فإنّها مطايا وعطايا يفتح لها أنوار سعادة الدنيا ويوم الحساب»^(٤٧). فتلاحقت أساليب: النداء (أيّها)، وأسلوب التحذير (إياك)، والأمر (اسلك)، فتعدّد هذه الأساليب في النسق الطاووسي، يعطي

شحنات تعبيرية وإيحائية للمخاطب من أجل إثارة انتباهه وإبلاغه.

ومن الخطابات الأخلاقية الطاووسية التي توافرت على تلاحق الأساليب الإنشائية، قوله في إظهار الصبر في استجابة الدعاء: «وإذا تأخرت عنك إجابة الدعاء وبلوغ الرجاء فأبك على نفسك بكاء من يعرف أن الذنب له، وأنه يستحق لأكثر من ذلك الجفاء، فكّم رأينا والله يا ولدي عند هذه المقامات من فتوح السعادات والعنايات ما أغنانا عن سؤال العباد وعن كثير من الاجتهاد»^(٤٨)، فنلمح تلاحق الأساليب الإنشائية: الاستفهام (كّم)، والقسم (والله)، والنداء (يا ولدي)؛ من أجل قوة الخطاب واستظهار الدلالات المتنوعات للوصول إلى المقاربات التداولية التي تساعد على إحداث التواصل والإبلاغ.

وتتعاقب الأساليب الإنشائية في الخطاب الأخلاقي الطاووسي النصوص حينها دعا المخاطب إلى الاقتداء بآثار الصالحين والاهتداء بأنوارهم، وعدم تضييع الوقت باغتنام الغفلة وطلب الشهوة، قال: «أيها العبد المسكين هل يصح أن يكون الله ﷻ ما يجبك وتكون من المسلمين انظر في شفاء سقام قلبك ودينك فداؤك عظيم دفين وهلاً اهتديت فاقتديت بمن تذكر أنك تهتدي بأنواره وتقتدي بآثاره وكيف كانت أحوالهم في ليلهم الذي تضيّعه أنت باغتنام الغفلات وطلب الشهوات كأنك دابةٌ قد رُفِعَ عنها حكم التكليفات»^(٤٩)، فلا يخفى تلاحق الأساليب الإنشائية وتعاقبها في النسق الأخلاقي الطاووسي المتمثل في النداء (أيها العبد المسكين)، والاستفهام (هل يصح؟)، والأمر (انظر)، والتحضيض (هلاً اهتديت)، وهذا التلاحق يُعطي دلالات متنوعات من أجل قوة الخطاب والوصول إلى أعلى درجة من درجات تنبيه المخاطب وإيقاظه.

ولاريب أن الخطاب الأخلاقي الطاووسي قد آنس تلاحق الأساليب الإنشائية، وإذا تأملت خطابه في العبادات، ولاسيما الصلاة، رأيت هذه الملاحظة الإنشائية الجميلة، قال: «فاعلم: أنّها تستدعي لك الحضور بين يدي مالك الأحياء والأموات، فبادر إليها

بالشريف والاستبشار بتلك العنايات، واترك كلَّ شغلٍ لا يعذرُك اللهُ ﷻ في الاشتغال به عنها، فإنه يصير ذلك الشغل مخالفة على مولاك وتصغيراً لأمره، وتخطر مخاطرة لا تأمن أنك لا تسلم منها، ولا تلتفت إلى قول مَنْ يسهّل عليك تأخيرها عن أوائل الأوقات، وجرب ذلك القائل لو كلفك حاجة وأخرتها عن أوائل قدرتك أفما يكون يلومك، ويشهد أنك مستحقٌ للمعاتبات؟ وما تعرف حقّ الموذات، ولكنهم جاهلون بالله ﷻ وعظمته ونعمته، فيريدون منك أن تحترمهم أكثر من احترامك لجلالته، وأن تكون محبّتك ومودّتك لهم أكثر من محبّته، فأياك أن تقتدي بهم في التهوين بمولاك، فقيح وعظيم وفضيح أن يساوى العبد بالمولى، وخاصّة وهو يراك^(٥٠)؛ إذ ابتدأ الخطاب بأسلوب الأمر (فاعلم، فبادر، واترك)، والنهي (لا تأمن، لا تسلم، لا تلتفت)، ثمّ لاحق ابن طاووس النهي الأمر (جرب)، والاستفهام (أفما يكون؟).

إنّ أيّ أسلوبٍ بلاغيّ - كما يقول الدكتور حسين جمعة - مهما قيل فيه قديماً وحديثاً «إنما هو بنية لغويّة دلالية مباشرة وغير مباشرة، يحمل وظائف الإثارة والإمتاع في الوقت الذي يحمل وظيفة التوصليل والإفادة بنقل الأفكار، ولهذا فوظيفة الأسلوب البلاغيّ ذات وجوه متعدّدة...، فالأسلوب البلاغيّ بوصفه ظاهرة بلاغيّة، تجمع بين عناصر الأدب والفنّ واللغة والحياة في بنية فنيّة مثيرة للعاطفة والوجدان والعقل»^(٥١).

وتزايد سمة تلاحق الأساليب الإنشائيّة وتتعالى وتتلعّع في خطابه الأخلاقيّ المجلجل في حثّه ولده على أداء الزكاة: «لا بالله يا ولدي لا تفضحني ولا تفضح نفسك مع الله ﷻ المنعم عليّ وعليك ولا تحجلنا معه ومع سلفك الطاهرين، واعتقد المنّة لله ربّ العالمين كيف أكرمك وسلّم ماله إليك؟ وكيف رضيك مستودعاً؟ وكيف جعلك أهلاً أن يبعث رسوله ﷺ إليك، فإنّ العقل قضى أنّه إذا كان عندي ودعة لسيدّي، وأنا عبده وهو ﷻ يقوم بكلّ ما أحْتَاج إليه وطلبها إنني أسلّمها إليه ولا أطلب جزاءً منه

ولا أذل بذلك عليه بل يكون قد خفف عني مؤونة حفظها ورعايتها وشرفني بجميل ذكرني بتأدية أمانتها»^(٥٢)، إذ ابتداء الخطاب بالقسم (بالله)، فالنداء (يا ولدي)، فالنهى (لا تفضحني، لا تفضح، لا تجعلنا، فالأمر (اعتقد، سلم)، ثم الاستفهام (كيف أكرمك؟، كيف رضيك؟، كيف جعلك؟)، يقينا أن التكثيف الإنشائي في هذا الخطاب، فضلاً عن وظيفته الأخلاقية يتجه إلى السمة الجمالية المثيرة للدهشة، والانفعال والإدراك^(٥٣).

المبحث الخامس

تخيّر الألفاظ

إنّ أساس الفعل الكلامي في أيّ اتصال يعدُّ الاختيار أساس نجاح الرسائل الإبلاغية، مهما تنوّعت تجلياتها، ويعدُّ هذا من الآليات التي تكشف عنها التداوليّة. يقول أبو هلال العسكري: «ومن الدليل على أنّ مدار البلاغة على تحسين اللفظ أنّ الخطب الرائعة، والأشعار الرائقة ما عمّلت لإفهام المعاني فقط؛ لأنّ الرديء من الألفاظ يقوم مقام الجيدة منها في الإفهام، وإنّما يدلُّ حُسن الكلام، وإحكام صنعته، ورونق ألفاظه، وجودة مطالعه، وحسن مقاطعه، وبديع مبادئه، وغريب مبانيه على فضل قائله، وفهم المنشئ»^(٥٤).

وهو على صلة بالخطبة؛ إذ تقتضي انتقاء الكلمات التي تجعل المستمع أكثر متابعة، فمن «تمام آلات البلاغة التوسّع في معرفة العربيّة، ووجوه الاستعمال لها؛ والعلم بفاخر الألفاظ، وساقطها، ومتخيّرها»^(٥٥)، والتخيير ههنا يرمي إلى التنوع في استعمال اللفظ بحسب المقام من جهة، والمتلقين من جهة أخرى، بلحاظ أنّ السامعين تختلف مستوياتهم، لذلك يخاطبهم بحسب درجاتهم، فأساس بناء الخطاب يقتضي التدبّر والتحقّق في اختيار الألفاظ، ليُسهم في رونقة الكلام، وجريانه مجرى السيل، ومن الكلام الجاري مجرى السيل، وهو على صلة بالخطاب؛ إذ تقتضي انتقاء الكلمات التي تجعل المستمع أكثر متابعة، والتخيير ههنا يرمي إلى التنوع في استعمال اللفظ بحسب

المقام من جهة، والمتلقين من جهة أخرى؛ لكون السامعين تختلف مستوياتهم، لذلك يخاطبهم بحسب درجاتهم.

وسنعرض نصوصاً أخلاقية طاووسية تتجلى فيها هذه السمة، من ذلك وصيته لابنه في حفظ الجوارح وأداء حقوقها، قال: «واعلم أن جوارحك بضائع معك لله ﷻ؛ وأمانات جعلك تاجرًا فيها لنفسك ولآخرتك، فمتى صرفتها في غير ما خلقت له من الطاعات والمراقبات أو أنفقت وقتًا من أوقاتك في الغفلات، كان ذلك الخسران عائدًا إليك بالنقصان ومثمرًا أن يعاملك سيّدك بالهجران واستخفاف الهوان»^(٥٦)، فلمح الإتقان في تحيّر الألفاظ ذات الدلالات المتقاربات تداوليًا، كأنها تنتظم في حقل دلاليّ، (بضائع، أمانات، تاجرًا، صرفتها، أنفقت، الخسران، النقصان، يعاملك).

وتتجلى سمة تحيّر الألفاظ في بيان أثر الإخلاص والتأدب مع الخالق ﷻ؛ لضمانة إجابة الدعاء مبيّنًا ابن طاووس تقنيّة الحجاج في قبول الدعاء، قال: «فبالله عليك كيف ترجو وأنت مستخفّ في الفعال والمقال أن تظفر بإجابته الابتهاال؟ فهل رأيت عاصيًا يتقرّب إلى سلطانه بعصيانه أو طالبًا يتقرّب إلى من يطلب منه بهوانه»^(٥٧)، فلا تحفى الذائقة الطاووسية في اصطفاء ألفاظ يجمعها نسقًا صوتيًا واحدًا (الفعال والمقال، عاصيًا طالبًا، سلطانه عصيانه، هوانه)، وقال في موضع آخر: «إني متوسّل إلى من لا يتعاضمه ذنوب أن يغفرها ولا عيوب أن يسترها ولا عثرات أن يقلبها ولا كربات أن يكشفها ويزيلها بجميع ما ذكرته من الوسائل المنجحة للمسائل في أن يقبل مني ما سألته»^(٥٨)، فاصطفى ابن طاووس ألفاظًا يجمعها نسقٌ صوتيٌّ واحدٌ (يغفرها، يسترها، ذنوب، عيوب، عثرات، يقلبها، يكشفها، يزيلها)، (الوسائل، المسائل).

وتأمّل معنا أيّها القارئ الحبيب دعاء ابن طاووس، والذي ختم به كتابه (مهج الدعوات ومنهج العنايات)، ممّا جاء على خاطره، قال: «اللّهم إنك ابتدأت بالإحسان

قبل منطق اللسان وفتحت أبواب الآمال وتفضلت بالنوال قبل السؤال ودللت على عفوك ذوي الألباب وأذنت لهم في محكم الكتاب بالخطاب ثم أمرتهم بالدعاء ووعدتهم بنجح الطلاب وهددتهم إن لم يسألوك وثقتهم عن الجواب وها أنا ذا امثّل مقدّس مراسمك في التعرّض لما وعدت من مراحمك واثقاً بشهادة العقول أنّ الكريم الجواد إذا أذن في السؤال ووعد بالقبول فإنّه ينزّه كماله عن التوقّف في المسؤول به وهو قادر على بلوغ المأمول»^(٥٩).

تجد الاصطفاء الحسن والاختيار المدروس للألفاظ، ويبدو أنّ المكنز الثقافى الواسع من جهة، وقلبه الأخلاقى الكبير قد ظهر في هذا الاصطفاء الأدبى والتربوي، ويتجلى هذا الاصطفاء في (ابتدأت، فتحت، تفضلت، دللت، أذنت، وعدت، هدّدت)، (الإحسان اللسان، الآمال، النوال، السؤال)، (مراسمك، مراحمك، العقول، القبول، المسؤول، المأمول).

المبحث السادس

مزية الفضاء (الزمكاني)

اعتنى ابن طاووس بالتصنيف بالجانب الدعائي عنايةً كبيرةً على التصنيف في سائر الجوانب، حتّى كأنّه الصفةُ الغالبةُ لمصنّفاته؛ لكون الدعاء يركّز على المعرفة الأخلاقية والقيم الأنسانية النبيلة، فالدعاء منهجٌ إرشاديّ يستعمل التكرار، ومعالجة السلوك بأضداده، وإثارة العاطفة والتفكير من الرذيلة، والترغيب في الفضيلة، ويستعمل أسلوب الوقاية والمعالجة في تربية الشخصية العبادية وتعديل سلوكها، وأنّه يشكّل مناخاً تربوياً مناسباً من شأنه تهذيب الأمة الإسلامية بأطيافها كافة، والدعاء مقدّمة للقرب الإلهي، فهو بنفسه أيضاً يعدُّ من أبرز مصاديق التقرب الإلهية، إذن هو مقدّمة وهو خاتمة بنفسه. إنَّ العبد إذا طلب من الله ﷻ أحسَّ بالعزّة، لذلك فالدعاء طلب ومطلوب، وسيلة وغاية، لم يجب أولياء الله شيئاً أكثر من حبّهم الدعاء، فكانوا يعرضون كلّ طلباتهم، وأمانيتهم على محبوبهم الحقيقي، وهم يولون طلباتهم من الأهميّة بالقدر الذي يولون لنجواهم مع الله ﷻ دون أن يحسّوا بتعب ولا نصب^(٦٠).

ومن المزايا المهمّة للخطاب الطاووسي الأخلاقي ولاسيما في الجانب الدعائي مزية الفضاء، وهو تمثل (أيقوني)، وبيانه أن الإنسان يدرك العالم إدراكاً بصرياً، فالإنسان يرجع العلاقات اللغوية إلى أشياء بصرية، ومن هنا يمكن عدّ المبدأ الأيقوني، والصفة البشرية من أهمّ الأنساق اللغوية الأصلية^(٦١).

وقد رسم لنا ابن طاووس صوراً فنية تستمد زخماً دلالي من سياقها التاريخي، فأضحت أدعيته ومناجأته ووصاياه ورسائله مسباراً يكشف عن تعلقاته النفسية والروحية بالخالق العظيم في ظل ربطها بالأنساق الزمانية والمكانية، مما جعلها كمشارط الجراحين تدخل في أعماق طبقات النفوس.

إنّ الفضاءات في خطاب ابن طاووس الأخلاقي ولا سيما في الدعاء، قد أحدثت صحوة ارتدادية في نفس المتلقي فتحول الخطاب لديه إلى وسيلة وآلية موجهة إلى المتلقي ينصر المظلوم ويفضح الظالم، زد على ذلك، يحاول إلقاء الاطمئنان والسكينة في نفس المخاطب من جهة، ويحذّر من التكاسل والتهاون في عمل الخير من جهة أخرى، فالدعاء له أثر كبير في نشر الأخلاق الإسلامية السامية؛ إذ يعدّ من الأساليب المؤثرة في هذا المضمار، والقرآن الكريم يقرّر حقيقة أنّ الدعاء طريق ارتباط العباد بالله ﷻ: ﴿قُلْ مَا يَعْزُبُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان: من الآية ٧٧]، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [سورة غافر: الآية ٦٠]، فنبّه ﷻ على أنّ ترك الدعاء استكبار عن عبادته، وسبب لدخول النار والعذاب المهين^(٦٢).

والدعاء ليس فقط سبيل للنجاة، بل هو أيضاً سبيل للوصول إلى المراتب العليا من الكمال، كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام، أنّه قال (إنّ عند الله منزلة لا تُنال إلاّ بمسألة)^(٦٣)، على أنّ الاستكبار وترك الدعاء، يؤدّيان إلى أن يفقد الإنسان استعداده وقابليته لتقبّل الرحمة الإلهية.

وقد نهج ابن طاووس في خطابه الأخلاقي ولا سيما في الدعاء منهج مدرسة أهل البيت عليه السلام، فقد تضمّنت الأدعية مقاطع مهمة وخاصة، فيها توسّل واستشفاع ترتبط بأنساق زمانية ومكانية داعياً العبد أن يكون متحفّظاً من السيئات بخلاف ما لا يجري

مجرها من الجهات والأوقات، فإنه ينبغي تعظيمه بحسب الأوامر الشرعيّات، فهو يُعنى بفضاء الأماكن المكرّمة: المسجد الحرام، والكعبة، ومسجد النبي ﷺ، وبيت المقدس، والمشاهد المشرّفة، والمساجد المباركات، وكلّ موضع أتى بتعظيمه سواءً في القرآن الكريم، أم في الأحاديث النبويّة، والروايات الصادرة عن أهل البيت ﷺ^(٦٤).

ويعيّن الأزمنة المتبرّكة؛ استناداً للآيات وبعض الروايات مثل ليلة الجمعة، وليلة القدر، وشهر رمضان، والأشهر الحرم، والأيام المعلومات، والأيام المعدودات، وغيرها من الأوقات المحترّمة^(٦٥)؛ و«عند زوال الشمس، وعند الأذان، وفي أوّل ساعة من ظهر يوم الجمعة، وفي آخر ساعة من يوم الجمعة، وفي الثلث الأخير من كلّ ليلة، وفي ليلة الجمعة كلّها، وعند نزول المطر، وبعد فرائض الصلوات، وعقيب صلاة المغرب إذا سجد بعدها، وعند وقت الخشوع، وعند وقت الإخلاص في الدموع إذا بقي من النهار للظهر نحو رُمح كلّ يوم»^(٦٦)، ومن ذلك أيضاً «دعوات ليالي القدر الثلاث وخاصّة أن علمها أحد بذاتها، وإلاّ فإن ليلة ثلاث وعشرين من شهر رمضان أرجح في تعظيم الدعوات وإجابتها، فمن ذلك أيام هذه الثلاث ليالي، ومن ذلك يوم مولد النبي ﷺ، وليلة مبعثه الشريف ويومه، ومن ذلك يوم عرفة وليلة عرفة وخاصّة إذا كان بالموقف أو عند الحسين ﷺ، ومن ذلك ليالي الأعياد الثلاث وأيامها، وهي ليلة عيد الغدير ويومه، وليلة عيد الفطر ويومها، وليلة عيد الأضحى ويومها، ومن ذلك أوّل ليلة من رجب ويوم النصف منه، وليلة النصف من شعبان»^(٦٧)، ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر ما نقله عن كتاب الأزمنة للمرزبانيّ عند ذكره ليوم الاثنين والخميس، أن رسول الله ﷺ كان يصوم يوم الاثنين والخميس، فقيل له لم ذلك؟ فقال ﷺ: (إِنَّ الْأَعْمَالَ تُرْفَعُ فِي كُلِّ اثْنَيْنِ وَخَمِيسٍ، وَأَحَبُّ أَنْ يُرْفَعَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ)^(٦٨)؛ وبإزاء ذلك يدعو ابن طاووس الناس إلى أن يكونوا متحفّظين بكلّ طريق، في طلب التوفيق، وأن يكونوا مجتهدين في

السلامة، من الإضاعة، بغاية الإمكان، فإنَّ العقل والنقل يقتضيان: أنَّ زمان عرض العبد على السلطان، أن يكون مستعداً ومستحفظاً بخلاف غيره من الأزمان، ويذكر اللحظات التي يستجاب فيها الدعاء، مثل سقوط المطر ووقت السحر، وعندما يوجد الإنسان بنفسه (يحتضر)؛ ومن يقرأ مؤلفاته يجد هذا التناغم؛ فهو يحترم ويحتكم كثيراً إلى المناسبات، ويستند في تعيينها إلى الروايات الصحيحة، والدقة في النقل فضلاً عن ذلك يفصّل في أعمال الليلة وغيرها.

سار ابن طاووس على خطى أهل بيت النبوة ﷺ في معرفة الله تعالى في تزكية النفس وعرفانها، فأدعية الليل والنهار والأذكار الأسبوعية السنوية، والأذكار الفصلية، كلُّ ذلك منسوب بأوراد، فهو ليس مخترعاً ولا مبتدعاً، وكان عرفانياً في تهذيب النفس تبعاً لما ورد عن النبي ﷺ، فأعماله ورياضاته شرعية، وليس الجلوس في الظلمات، وتكرار بعض الكلمات في العزلة والغرف المظلمة؛ وعرفانه عرفان الإمام زين العابدين عليه السلام، ورياضاته رياضات الصحيفة السجادية أدعية وأذكار مفاتيح الغيب، الأوقات الشرعية، الأعمال المسنونة، زيارة الأئمة ﷺ إلى مراقدهم ومقاماتهم. كان للعرفان الطاوسي ميزة عظيمة، ومزية كبيرة، أدعيته وأوراده طبقاً للموازن الشرعية للأئمة ﷺ، فوق الأرض لا تحتها، جهاراً لا سراً، لا يتكلف لا يغمض، لا يعمي العبارات؛ والألفاظ في غاية الوضوح والبيان، لا يتمم ولا يغمض ولا يُلبس؛ فتهذيب النفس وتهذيب الآخرين مأخوذٌ من القرآن الكريم، والمصطفى ﷺ وأهل بيته المعصومين ﷺ.

المبحث السابع

التقابلات الدلالية

التقابل في اللغة: المواجهة، «تقول لقيته قبلاً: أي مَوَاجِهَةً، والمقَابَلَةُ: إذا ضَمَمْتَ شيئاً إلى شيء، تقول: قَابَلْتُهُ بِهِ»^(٦٩)، وعند ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ): «(القاف، والباء، واللام): أَصْلٌ واحدٌ صحيحٌ؛ تدلُّ الكلمة كُلُّها على مَوَاجِهَةِ الشيءِ للشيءِ، وَيَتَقَرَّعُ بعد ذلك»^(٧٠).

أمّا في الاصطلاح، فلا يخرج المعنى عن معناه اللغوي، فتظهر معانٍ متقاربات، منها: التضاد، والطباق، والمقابلة، والتكافؤ... وغيرها، وقد جمعها العلوي (ت ٧٤٩ هـ) في طرازه، بخمسة مصطلحات، هي: التطبيق، والتضاد، والتكافؤ، والطباق، والمقابلة، مفرّقاً بين الطباق والمقابلة بأنّ التضاد إذا كَثُرَ سُمِّيَ مقابلاً^(٧١).

انطلق ابن طاووس في خطابه الأخلاقيّ من نسق تصوّريّ مهمّ قائم على التقابلات الدلالية، قال في دعاء العبرات، وهو من الدعوات المذخورة، والأسرار المستورة بدعاء أورده الله ﷻ على خاطره، وهو المنشئ للسرائر، والمالك للبصائر: «وقد علمت أنّي أعصيك فيما لا يزال صغيراً وكبيراً ظاهراً ومستوراً وبالمرآحيم والمكارم التي نقلتني بها من ظهور الآباء إلى بطون الأمّهات»^(٧٢)، فتلمح تقابلاً دلاليّاً ذا علاقة ضدية بين: (صغيراً كبيراً)، (ظاهراً مستوراً)، (ظهور الآباء بطون الأمّهات)، وقال: «واضربهم بتكرار أخطار البلاء والابتلاء حتى يقدموا عليك وقد خسروا سعادة الدنيا والآخرة

وأتلّفوا ما ظفر به السعداء من النعم الباطنة والظاهرة»^(٧٣)، فالتقابل الدلالي بين (الدنيا الآخرة)، و(الباطنة الظاهرة) ذو علاقةٍ ضديّة.

ونلمح هذه العلاقة في أغلب خطابه الأخلاقية كما هو الحال في التقابل بين (الحياة والموت)، و(الإقبال والإدبار)، و(عجزنا وظفرننا)، و(الأوائل والأواخر)، و(حار وبارد)، و(رطب ويابس)، و(يؤدّي، يخون)، و(يصفو، يتكدر)، و(يستر، يجاهر)، و(يتقرّب، يتباعد)، و(البانون، المفطرون)، و(يحسن، يسيء)، و(يقبل، يعرض)، قال ابن طاووس موصياً ابنه بأن يكون أهلاً لاستقبال نعم الله ﷻ، قال: «ثمّ جعلك الله ﷻ يا ولدي محمّد وسائر المكلفين أهلاً أن يكتب إليكم كتاباً من مقدّس جلّالته وعظيم ربوبيّته مع غنائه لذاته عن خليقته، وأن يبعث رسلاً من نوابه وأنبيائه وخاصّته، ولم يكن بنو آدم في مقام أن يبلغ حالهم إلى هذا المقام من كرامة، ثمّ بلغ الأمر بين الله ﷻ القادر القاهر مالك الأوائل والأواخر، وبين بني آدم الضعفاء والأذلاء الأصاغر الذين انتظم حال وجودهم من تراب وروح كالهواء، إلى أن بنى لهم الدنيا قبل معرفتهم به وخدمتهم له، وفيها ما هم إليه محتاجون، وما أتعّبهم في بنائها وإنشائها، ولا كانوا يقدرون، فلا يعترفون ولا يشكرون، حتّى كأثمّ البانون لها والفاطرون، ثمّ يحسن ويسئون، ويقبل فيعرضون، ويعدهم فلا يتّقون، ويتقرّب إليهم فيتباعدون، ويتحبّب إليهم فيكرهون، ويؤدّي الأمانات إليهم فيخونون، ويصفو معهم فيتكدّرون، ويستر عليهم فيجاهرون، ويطلّع عليهم فلا يستحيون، ويتهدّدهم فلا يخافون، ويطلبهم عدوهم فيسارعون، ويسألهم أن يسكنوه في قلوبهم التي هي من جملة ما وهبهم فلا يفعلون، ويبدل أجرى السكنى أوّلاً وحاضرًا ومستقبلاً فلا يقبلون، ويطلب منهم بعض ما أعطاهم ليبدّخها لهم فلا يجيبون، وفرض عليهم ما ينفعهم فيعرضون، ويريمهم الآيات في أنفسهم وفي الآفاق فلا يبصرون، ويوثقهم من دار قد عمرها لهم كاملة الصفاء دائمة البقاء ويريد انتقاهم

إليها فلا يوافقون»^(٧٤)، ونجد في النصّ تقابلاً دلاليّاً ذا علاقة (الإيجاب والسلب)، ويكون في فعلين الأوّل مثبت، والثاني منفيّ، في (يريهم، لا يبصرون)، (ويريد انتقامهم، لا يوافقون).

وثمّة تقابل دلاليّ ذو علاقة أخرى (العدم والكسب)، ويراد به أن أحد المتقابلين معدوماً عن الصفة، والآخر مكتسب لها، قال ابن طاووس: «واعلم حفظك الله يا ولدي محمّد وحفظ ما أنعم وينعم به عليك، وأوزعك شكر ما أحسن به إليك، أن وجوده ﷺ وصفاته ليست مناسبة لوجودنا وصفاتنا في شيء من الأشياء؛ لأننا موجودون به ﷺ، ويتصرّف فينا تارة بالإنشاء وتارة بالإفناء وتارة بالحياة وتارة بالموت وتارة بالعافية وتارة بالسقم وتارة بالشباب وتارة بالهرم وتارة بالغنّى وتارة بالفقر»^(٧٥)، وتأمّل التقابل الدلاليّ ذا العلاقة (العدم والكسب) في خطاب ابن طاووس في كتابه الدرّوع الواقية، قال: «أحمد الله ﷺ بما وهب لي من القدرة على حمده، وأثني عليه ﷺ على توفيقني لتقديس مجده، وأطوف بلسان حال العقل حول حمى كعبة مراحمه ومكارمه ورفده، واستعطفه ببيان مقال النقل رجاءً لتعام رحمته وحلمه عن عبده، واسمع من دواعي النصيحة والإشفاق، ورسّل رسائل أهل السباق، حثّاً عظيمًا على التلزم بأطناب سرادقات منشئ الأحياء، ومُفنيّ الأموات، وواهب الأقوات، ومالك الأوقات، حتّى لقد كدت أن أجدني كالمضطرّ إلى الوقوف بمقدّس جنبه، والمحمول على مطايا لطفه وعطفه إلى العكوف على شريف باب»^(٧٦).

وللتقابل الدلاليّ أثر مهمّ في الخطاب الأخلاقيّ عند ابن طاووس، فهو يحضر بقوة في أدعيته ورسائله ووصاياه، فالطبيعية الشيطانية تقابل الطبيعة الملائكية، وكذلك صفات الطبيعتين، الأولى: الشيطانية، مثل: الخبث، والوقاحة، والرياء، والعبث، والحرص، والشبع، والملق، والحسد، والتهور، والشهاتة، والبذخ، والتكبر، والاستهزاء، والمكر...

وغيرها، وأمّا صفات الطبيعة الملائكيّة، فهي: العلم، والشجاعة، والحكمة، والكرم، والعفة، وضبط النفس، والصدق، والحلم، والزهد، والعفو، والورع... وغيرها.

قال في مقدّمة كتابه (جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع): «أحمد الله ﷻ الذي أيقظ ذوي السنّة من أهل الوجود بالسنّة الفضل والكرم والجلود، وعلم العبد المخلوق من التراب حتّى تكلمّ بمحكم الآداب على منابر الصواب، وألبس العقل من خلع أنواره حتّى أجلس صاحبه بالفضل على أرائك ممالك أسراره، ورفع بالرياسة منازل مملوكه وعبده عن نوازل مهالك، وظلّل ظلال فهمه بها أسبل عليه من حلال كمال رحمته وحلمه، وكانت حياته مواتاً فأخذه بيد قدرته من عدمه وأعاشه، وكان عظمه عرياناً فكساه لحماً من نعمته وراشه، وكان إمكانه رفاتاً فأخذ بيده وانتاشه، وكان لسانه مقفلاً ففتح بمفاتيح جوده أقاله، وكان انسانيه مهملاً فأوضح بمصايح شمس سعوده إقباله، وكان بصره في الأفق أكمه فكحله بميل فضله حتّى أبصر سبيل مثله، وكان سمعه في الطرف متيهاً فنحله من نعم كرمه ما شفاه من سقم صممه، وكان قلبه في مخافة أخطار الجهل فتداركه بالرأفة وأنوار العقل، ولم يغن عن الله شيئاً من هذه المواهب عنه سبحانه»^(٧٧).

وهنا كلام ينبغي أن نذكره: أننا لو بحثنا عن سرّ هذه التقسيات والتقابلات الدلاليّة، لوجدنا أنّ مصدرها القرآن الكريم، والأحاديث النبويّة الشريفة، وكلمات أئمّة أهل البيت عليهم السلام، فمحموريّة التقابل الدلاليّ حاضرة عنده.

خاتمة البحث ونتائجه

بعد إتمام متطلّبات البحث، وصل الباحث إلى الفوائد الآتية:

الأولى: أفاد ابن طاووس من المرويّات الصادرة عن أهل البيت عليهم السلام وكلامهم؛ لأنّهم يمثّلون معدن الحكمة، ومعقل الإيوان، ومغرس العطاء.

الثانية: تبين لنا في ظلّ فتوى ابن طاووس الشهيرة التي فضّل فيها الكافر العادل على المسلم الجائر أنّه قد أعطى للقيمة الأخلاقية بعدها التداولي، ومرقاتها الإنسانية، فالناس يتفاضلون بأخلاقهم ومبادئهم الإنسانية، ويبدو أنّ جوهر هذه الفتوى، وروحها نبيل من القرآن الكريم الذي انتصر للقيم الأخلاقية أيّما انتصار، وهذا دليل على ذوبان ابن طاووس في كتاب الله (القرآن الكريم) حفظاً وتدبّراً وفهماً.

الثالثة: اعتمد ابن طاووس على العقل والاستدلال، وطريقة الذوق والحال، وأراد أن يجعل أسلوبه، وخطابه الأخلاقيّ روضة تزهو لذوي الألباب والعقول وكأنتها الرتاج العظيم للوصول الى المحصول، وقد اتّخذ في كتبه طابعاً منهجياً دقيقاً، ظهر فيه خطيباً أخلاقياً، وتداولياً منهجياً.

الرابعة: قدّم الخطاب الأخلاقيّ عند ابن طاووس زاداً تأويلياً للمتلقّي ذا قيمة عالية فيه مجموعة من النصائح والفضائل الأخلاقية لا تصدر إلا من عرفانيّ كبير، وأخلاقيّ عظيم.

الخامسة: ظهر أنّ أوّل أثر للإيمان هو أنّه سند للأخلاق، أي إنّ الأخلاق، مع

أنّهما من رؤوس الأموال الكبيرة في الحياة، لا يكون لها أساس، وقاعدة بغير الإيمان. إنّ أساس جميع الجذور الأخلاقية ومنطلقها، بل إنّ سلسلة المعنويّات برمتها مبنية على الإيمان الدينيّ، أي الإيمان بالله والإعتقاد بوجوده، فكلّ الفضائل والصفات التي يقدّسها الأفراد والجماعات والشعوب كافة، ويدّعيها حتّى الذي لا يملكها مبنية جميعاً على مبدأ الإيمان.

السادسة: ظهر أنّ ابن طاووس الحليّ من المؤسّسين لفقه (الأخلاق) في ضوء ما وقفنا على خطابه الأخلاقية المثبوتة في كتبه، فقد أعطى للعبادات والمعاملات مدياتها وتحوّلها الرحاب، كاشفاً النقاب عن أسرارها ودقائقها.

السابعة: ظهر أنّ لابن طاووس آراءً حصيفةً في أخلاقية السياسة، وأخلاقية الجهاد، نرجو أن تتاح لتسجيلها المناسبة أنصافاً لهذا الأخلاقيّ الكبير والتربويّ العظيم.

الثامنة: لا غرو أنّ ابن طاووس الحليّ قد أبعد قسماً من العلوم ولم يبوئها تلك المنزلة الرفيعة التي تستأهلها، ويبدو أنّ ذلك الابتعاد تحرّكه دوافع تمجيد كلام أهل البيت عليهم السلام، وأدعيتهم، فكان انتصاراً لجلال الدعاء والوصايا، والذي يعلو على جلال علم الكلام، والفقه من أجل نشدان الحقيقة الكونية، وتحقيقاً لمقاصد الترغيب والترهيب.

التوصيات

الأولى: الدعوة الى دراسة الخطابات الأخلاقية عند علماء المسلمين، لاسيما علماء أتباع أهل البيت عليه السلام؛ لما تتضمنه من عمق في الطرح، ورؤية ثاقبة في فلسفة الأخلاق؛ لكونها مستقاة من النهر المادّ، والبحر الزخار، كتاب العربية الأكبر، القرآن الكريم، ومنابع الخلق والحكمة، الثقل الاصغر، المصطفى عليه السلام وأهل بيته الأطهار عليهم السلام.

الثانية: تبصرة المجتمع الإنساني والمؤسسات التربوية والتعليمية والاجتماعية بلزوم انطوائها على المنظومة الأخلاقية المتكاملة والمثالية، فالملاك في صحّة ما تقوم به من أدوار ونشاطات وممارسات كلّها تكون في خدمة الأخلاق، وتعمل على ترسيخ الفضائل والشمائل في المجتمع.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

هوامش البحث

- (١) يُنظر: المدارس الأخلاقية في الفكر الإسلامي، مجموعة مؤلفين: ٣٣.
- (٢) يُنظر: المدارس الأخلاقية في الفكر الإسلامي: ٤٥٠-٤٥١.
- (٣) الكافي للكليني (باب الدعاء): ٤٦٦/٢.
- (٤) يُنظر: المدارس الأخلاقية في الفكر الإسلامي: ٤٤٥-٤٤٦.
- (٥) يُنظر: المدارس الأخلاقية في الفكر الإسلامي: ٤٤٦-٤٤٧.
- (٦) يُنظر: التفكير الناقد في القضايا الأخلاقية، تومس وول، ترجمة د. نجيب الحصادي: ٦١-٦٢.
- (٧) يُنظر: الخطاب الإسلامي إلى أين؟، حورات وحيد تاجا (مقدمة بقلم الدكتور طه عبدالرحمن): ٣٥.
- (٨) يُنظر: محاضرات في الدين والاجتماع، مرتضى مطهري: ٢٧٣.
- (٩) كشف المحجة لثمرة المهجة: ٥٤.
- (١٠) الفخري في الآداب السلطانية، ابن الطقطقا: ١١.
- (١١) يُنظر: فقهاء الفيحاء، كمال الدين: ١٤٥-١٤٨.
- (١٢) يُنظر: شرح رسالة الحقوق: ٣٨٥/١.
- (١٣) شرح إحقاق الحق، السيد المرعشي: ٤٠٨/٢٨.
- (١٤) يُنظر: بحار الأنوار: ٤٤/١٠٧.
- (١٥) كشف المحجة لثمرة المهجة: ١١٨.
- (١٦) كشف المحجة لثمرة المهجة: ١٤٤.
- (١٧) كشف المحجة لثمرة المهجة: ١٤٧.
- (١٨) يُنظر: سعد السعود: ٢٨.
- (١٩) كشف المحجة لثمرة المهجة: ١٤٦.
- (٢٠) الإقبال بالأعمال الحسنة: ٣٨٤/١.
- (٢١) يُنظر: الإقبال بالأعمال الحسنة: ٣٨٤/١.
- (٢٢) أصول الكافي، الكليني: ٤٧/٤.

- (٢٣) بحار الأنوار: ١٦٧/٩٥ .
- (٢٤) نهج البلاغة (ت: حقيق صبحي صالح): ٤٢٧ .
- (٢٥) يُنظر: الإقبال بالأعمال الحسنة: ١/٣٨٤ .
- (٢٦) وحي الرسالة (فصول في الأدب والنقد والسياسة والاجتماع): ٢٠٥ .
- (٢٧) يُنظر: السبيل إلى البلاغة الباتوسية الأرسطية (بحث): محمد الوبي: ٦٠ .
- (٢٨) الخطاب الدعوي بين العامة والخاصة، مقال للأستاذ محمد الدويش في شبكة المعلومات .
- (٢٩) فلسفة الأخلاق في الاسلام، محمد جواد مغنية: ١٢ .
- (٣٠) يُنظر: تنبيه الخواطر ونزهة النواظر (مجموعة ورّام): ٩ .
- (٣١) يُنظر: الدين والعلم مطارحات في دينة العلم، مجموعة من الباحثين: ٦٢ .
- (٣٢) الصراط المستقيم في ربط الحادث بالقديم، المير محمد باقر الداماد: ٨ .
- (٣٣) مفاتيح الغيب، محمد بن إبراهيم الشيرازي: ٢/٦٠٢ .
- (٣٤) يُنظر: جامع السعادات، النراقي: ١/٤٨-٥٣ .
- (٣٥) كشف المحجة لثمره المهجة: ٥٦ .
- (٣٦) سعد السعود: ١٩٠ .
- (٣٧) سعد السعود: ٥٩٧ .
- (٣٨) كشف المحجة لثمره المهجة: ٣٨ .
- (٣٩) يُنظر: فقه الأخلاق، محمد صادق الصدر: ١/٢٠ .
- (٤٠) كشف المحجة لثمره المهجة: ٨٦ .
- (٤١) كشف المحجة لثمره المهجة: ١٦٥ .
- (٤٢) كشف المحجة لثمره المهجة: ١٦٥ .
- (٤٣) فلاح السائل ونجاح المسائل: ٢٨٣ .
- (٤٤) يُنظر: الخطاب الإسلامي إلى أين؟ (حوارات وحيد تاجا)، مقدّمة بقلم: الدكتور طه عبد الرحمن: ٢٠ .
- (٤٥) كشف المحجة لثمره المهجة: ١٢٩ .
- (٤٦) كشف المحجة لثمره المهجة: ١٠٢ .
- (٤٧) الإقبال بالأعمال الحسنة: ١/٢٤٥ . والآية سورة الأعراف: ١٥٧ .
- (٤٨) كشف المحجة لثمره المهجة: ٧٣ .
- (٤٩) فلاح السائل ونجاح المسائل: ٢٦٤-٢٦٥ .
- (٥٠) كشف المحجة لثمره المهجة: ١٤١ .

- (٥١) جمالية الخبر والانشاء (دراسة جماليّة بلاغيّة نقدية)، حسين جمعة: ١٧.
- (٥٢) كشف المحجّة لثمرة المهجة: ١٣٤.
- (٥٣) جمالية الخبر والانشاء (دراسة جمالية بلاغية نقدية): ١٦.
- (٥٤) كتاب الصناعيتين، أبو هلال العسكري: ١/ ٥٨، ويُنظر: الاتصال اللسانيّ وآلياته التداوليّة، سامية بن يامنة: ١٠٣.
- (٥٥) كتاب الصناعيتين: ١/ ٢١.
- (٥٦) كشف المحجّة لثمرة المهجة: ١٢٠.
- (٥٧) مهج الدعوات ومنهج العبادات: ٣٤٨.
- (٥٨) مهج الدعوات ومنهج العبادات: ٣٣١.
- (٥٩) مهج الدعوات ومنهج العبادات: ٣٢٦ ٣٢٧.
- (٦٠) يُنظر: محاضرات في الدين والاجتماع، مرتضى المطهريّ: ١١٩.
- (٦١) يُنظر: مشكلة المكان الفنيّ: يوري لوتمان، ترجمة وتقديم: سيزا قاسم (ضمن جماليّات المكان): ٦٨ (الأيقون: الصورة أو المثال).
- (٦٢) يُنظر: فلاح السائل ونجاح المسائل: ٦٨.
- (٦٣) الكافي، للشيخ الكلينيّ: ج ٢، حديث ٤٦٦.
- (٦٤) يُنظر: محاسبة الملائكة الكرام، للسيد ابن طاووس، تحقيق: الشيخ هادي القيسيّ: ٣٦٦.
- (٦٥) يُنظر: محاسبة الملائكة الكرام: ٣٦٦.
- (٦٦) يُنظر: مهج الدعوات ومنهج العناية: ٤٣٣.
- (٦٧) يُنظر: مهج الدعوات ومنهج العناية: ٤٢٦.
- (٦٨) يُنظر: محاسبة الملائكة الكرام: ٣٥٨. وبحار الأنوار: ٥٩/ ٤٩ حديث ١٠.
- (٦٩) العين: الخليل بن أحمد الفراهيديّ، مادة (قبل): ٥/ ١٦٨.
- (٧٠) مقاييس اللغة: مادة (قبل): ٥/ ٧٣٣.
- (٧١) الطراز (المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز)، العلويّ: ٣٨٢.
- (٧٢) مهج الدعوات ومنهج العناية: ٣٢٦.
- (٧٣) مهج الدعوات ومنهج العناية: ٣٣٠.
- (٧٤) كشف المحجّة لثمرة المهجة: ٣٠.
- (٧٥) كشف المحجّة لثمرة المهجة: ٢٥.
- (٧٦) الدرّوع الواقية: ٣٢-٣٣.
- (٧٧) جمال الأسبوع بكمال العمل المشروع: ١٥.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.
٢. أصول الكافي، أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني (ت ٣٢٨هـ)، الطبعة الأولى، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.
٣. الاقبال بالأعمال الحسنة فيما يعمل مرّة بالسنة، رضي الدين علي بن موسى بن جعفر بن طاووس (ت ٦٦٤هـ)، تحقيق: جواد الفيومي الأصفهاني، مكتب الإعلام الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.
٤. بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، (ت ١١١١هـ)، الطبعة الثانية، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٩٩٨م.
٥. تداوليّة قبل التداوليّة (هي تداوليّة قروسطيّة عربيّة إسلاميّة)، بيار لارشي، ترجمة: الدكتور عزّ الدين المجذوب، منشور في: (إطلاقات على النظريّات اللسانيّة والدلاليّة في النصف الثاني من القرن العشرين) (مختارات معرّبة)، الطبعة الأولى، بيت الحكمة، قرطاج، تونس، ٢٠١٢م.
٦. التفكير الناقد في القضايا الأخلاقيّة، تومس وول، ترجمة: د. نجيب الحصادي، الطبعة الأولى، طرابلس، ليبيا، ٢٠٠٤م.
٧. تنبيه الخواطر ونزهة النواظر (مجموعة ورّام)، أبو الحسين ورّام بن أبي فراس (ت ٦٠٥هـ)، تحقيق: باسم محمد مال الله الأسدي، الطبعة الأولى، العتبة الحسينيّة المقدّسة، كربلاء، ٢٠١٣م.
٨. جامع السعادات، محمد مهدي النراقي، الطبعة الأولى، مؤسّسة التاريخ العربي، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
٩. جماليّة الخبر والإنشاء، د. حسين جمعة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٥م.
١٠. الخطاب الإسلاميّ الى أين؟ حوارات وحيد تاما (مقدّمة بقلم: الدكتور طه عبد الرحمن)، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م.
١١. الخطاب الدعوي بين العمامة والخاصّة.
١٢. الدرّوع الواقية، رضي الدين ابن طاووس، تحقيق: مؤسّسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

١٣. الدين والعلم مطارحات في دِينَتِنا العلم، مجموعة من الباحثين، محمد حسن زراقت، الطبعة الأولى، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٨م.
١٤. السبيل الى البلاغة الباتوسية الأرسطية، محمد الولي، مجلّد الحجاج، الجزء الثاني، ٢٠٠٨م.
١٥. سعد السعود، ابن طاووس، منشورات الرضيّ، مطبعة أمير، قم، ١٣٦٣هـ.
١٦. شرح إحقاق الحقّ، السيد المرعشيّ، منشورات كليّة المرعشيّ النجفيّ، قم، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
١٧. شرح رسالة الحقوق للإمام زين العابدين عليه السلام، تأليف: السيد حسن القبانجيّ، منشورات مؤسّسة الأعلميّ للمطبوعات، الطبعة الاولى، بيروت، لبنان، ٢٠٠٢م.
١٨. الصراط المستقيم في ربط الحادث بالقديم، تأليف: المير محمد باقر الداماد، تحقيق: عليّ أوجيبي، مركز نشر ميراث مكتوب، طهران، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م.
١٩. الطراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، يحيى بن حمزة العلويّ اليمنيّ (ت ٧٤٩هـ)، دار الكتب العلميّة، (د.ت).
٢٠. العين، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيديّ (ت ١٧٥هـ)، تحقيق: د. مهديّ المخزوميّ وإبراهيم السامرائيّ، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٥م.
٢١. الفخريّ في الآداب السلطانيّة والدول الإسلاميّة، محمد بن عليّ بن طباطبا ابن الطقطقيّ (ت ٧٠٩هـ)، مراجعة: محمد عوض إبراهيم وعليّ الجارم، مطبعة المعارف، مصر، ١٩٢٣ - ١٩٣٨م.
٢٢. فقه الأخلاق، محمد صادق الصدر، دار البصائر، بيروت، ١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م.
٢٣. فقهاء الفيحاء تطوّر الحركة الفكرية في الحلة، السيد هادي حمد كمال الدين، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٢م.
٢٤. فلاح السائل ونجاح المسائل في عمل اليوم والليلة، ابن طاووس، رضي الدين عليّ بن موسى ابن جعفر الحسنيّ، ابن طاووس، تحقيق: غلام محسن المجيديّ، دار جواد الأئمة عليهم السلام للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٣٢هـ / ٢٠١٢م.
٢٥. فلسفة الأخلاق في الإسلام، محمد جواد مغنّيّة، دار الجواد، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م.
٢٦. كتاب الصناعتين، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكريّ (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق: عليّ محمد البجاويّ ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصريّة، بيروت، ١٤١٩هـ.

٢٧. كشف المحجّة لثمرة المهجة، رضي الدين ابن طاووس، تحقيق: الشيخ محمد الحسون، الطبعة الثالثة، ١٤٣٠هـ.
٢٨. محاسبة الملائكة الكرام، للسيد ابن طاووس، تحقيق: الشيخ هادي القيسي، مجلّة تراثنا، العددان الأوّل والثاني، ٤٥ و٤٦، السنة الثانية عشرة، محرّم-جمادى الآخرة، ١٤١٧هـ.
٢٩. محاضرات في الدين والاجتماع، مرتضى المطهرّي، الطبعة الأولى، قم، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.
٣٠. المدارس الأخلاقيّة في الفكر الإسلاميّ دراسة منهجيّة في المصادر والاتّجاهات، مجموعة مؤلّفين، تعريب: عبد الحسن بهبانيّ بور، الطبعة الأولى، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلاميّ، بيروت، ٢٠١٢م.
٣١. مشكلة المكان الفنيّ، يوري لوتمان، ترجمة وتقديم: سيزا قاسم (ضمن جماليات المكان)، الطبعة الثانية، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٨م.
٣٢. مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيميّ الرازيّ الملقّب بفخر الدين الرازيّ خطيب الريّ (ت ٦٠٦هـ)، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ.
٣٣. مهج الدعوات ومنهج العناية، رضي الدين أبو القاسم عليّ بن موسى بن جعفر بن محمد ابن طاووس الحسينيّ (ت ٦٦٤هـ)، مؤسسة الأعلميّ للمطبوعات، بيروت، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
٣٤. نهج البلاغة، الإمام عليّ بن أبي طالب (ت ٤٠هـ)، وهو مجموع ما اختاره الشريف الرضيّ، ضبط نصّه وابتكر فهارسه العلميّة: الدكتور صبحي صالح، منشورات دار الهجرة، (د.ت).
٣٥. وحي الرسالة (فصول في الأدب والنقد والسياسة والاجتماع)، أحمد حسن الزيات، الطبعة الثامنة، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٣م.

